

عَقْدُ الْجَمَانِ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

المجلد الأول

د. عبد الله بن القاسم

دار القاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ح) دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد الملك بن محمد

عقد الجمان في تفسير القرآن. / د. عبد الملك بن محمد القاسم.

- الرياض، ١٤٣٣هـ

.. ص: سم

ردمك: ٣ - ٥٧٥ - ٠٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- القرآن - تفسير

أ. العنوان

١٤٣٣/٤٢٥١

ديوي ٢٢٧

رقم الإيداع: ١٤٣٣ / ٤٢٥١

ردمك: ٣ - ٥٧٥ - ٠٢ - ٠٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

الفرع الرئيسي

الرياض: هاتف: ٠١١٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٠١١٤٠٣٣١٥٠

البريد الإلكتروني: sales@dar-alqassem.com

المتجر الإلكتروني: www.daralqasm.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله ﷻ أنزل كتابه الكريم وجعله للناس هدى وضياء، ونوراً وشفاء، فيه الأحكام والشرائع، والأوامر والنواهي، وأخبار الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقد أمرنا بقراءته وتدبر معانيه والقيام بحقه والنهل من معينه، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل إلا بمعرفة تفسيره وكشف دقائقه وبيان معانيه. قال الحسن: «نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاذه وأقرب إلى نجاته من قراءة القرآن، ومعرفة معانيه وتدبره وإطالة التأمل فيه».

ولذلك كان الصحابة رضوا الله عنهم يحرصون على الجمع بين حفظ القرآن وفهمه، قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل».

وقد جمع الله لهم مع قراءته وتلاوته، معرفة معانيه وتدبر آياته ما جعلهم أحب الخلق إليه، كما قال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل».

ورغبة في نفع نفسي وإخواني في النهل من هذا المعين العظيم، ومعرفة معانيه؛ كان هذا التفسير الميسر لكتاب الله تعالى: «**عقد الجمان في تفسير القرآن**»؛ الذي جاء على نسق واحد، وجمعت فيه بين أقوال المفسرين، سائراً فيه على معلم واضح وطريق ثابت، فما تجاوزت منهج السلف ولا أثر الخلف.

والكتاب يبدأ بمقدمة لكل سورة لتكون مدخلاً لمقاصدها وفوائدها، مع ذكر أسباب النزول وما ذكر في فضلها. وكذلك في بداية كل مقطع بمقدمة له. وجمعت فيه ما وقع تحت يدي من فرائد وفوائد كتب التفاسير وغيرها، فجاء - بحمد الله - عقداً مضيئاً، مختصراً مفيداً، محملاً بالدرر والفوائد، مُجملاً بالجواهر والقلائد، ليس فيه قول ضعيف أو شاذ أو استطراد.

وزان الكتاب وضع المصحف كاملاً، مع سهولة البحث في أعلى كل صفحة: باسم السورة، والجزء ورقم الآية، وتتم ذلك فهرس للسور.

أسأل الله ﷻ أن يجعل ذلك معيناً على تفسير كتابه العظيم وتدبره، كما ذكر عن إياس بن معاوية أنه قال: «مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب».

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن قارئ كتاب الله: «أن تعلّمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه».

وقال رحمه الله: «إن من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله وتدبره بقلبه؛ وجد فيه من الفهم والحلاوة، والهدى وشفاء القلوب، ما لا يجده في شيء من الكلام لا نظماً ولا نثراً».

اللهم أسبغ علينا من فضلك وجودك، واجعلنا ممن يتلو كتابك، ويتدبر آياته، ويعمل بأحكامه، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تفسير سورة الفاتحة وهي مكية

✽ سورة الفاتحة سورة عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك؛ لأنه تعالى افتتح بها القرآن الكريم؛ وهي سورة مكية، قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مُجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: «أم القرآن»،

وسميت «أم الكتاب»، و«السبع المثاني»، و«سورة الحمد»، و«سورة الصلاة»، و«الواقية»، و«الشافية».

ولعظم هذه السورة ومكانتها جُعِلت ركنًا في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب. قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [رواه البخاري ومسلم].

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: «وما يدريك أنها رقية...» [رواه البخاري].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليست بالبسملة آية في بداية جميع السور،

بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره.

﴿بِسْمِ﴾ أي: أبدأ باسم الله، استعانة على الأداء والتوفيق.

﴿اللَّهُ﴾ الله اسم رب العالمين، لا يسمى به غيره ولا يوجد من تسمى به لا قديماً ولا حديثاً؛ والله: هو المألوه المعبود، الذي تفرع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج وهو أصل الأسماء، وأكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم دال على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلَان» الذي يدل على السعة.

﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فَعِيل» الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته، دل عليها ﴿الرَّحْمَنُ﴾، ورحمة هي فعله، أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم دل عليها ﴿الرَّحِيمُ﴾، وهو الرحيم بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله وهو كثير جداً، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب.

والرحمن والرحيم: اسمان كل منهما دال على صفة حقيقية لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهكذا يقال في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة. والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: الله، والرب، والرحمن.

وفي البسملة خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهرًا في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة لأنها من الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة، ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولا بد من قيد، وهو المحبة والتعظيم؛ لأن مجرد وصفه بالكمال دون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا؛ وإنما يسمى مدحًا.

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله تعالى له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدًا.

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد

بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف الله ﷻ بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا مضافاً، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو سبحانه المنشئ للخلق، القائم بأمورهم، المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى وقيل: العالم عبارة عمن يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين. وتربيته لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين وأرزاقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزاقهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم تفسيرها في البسملة.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك صفة لفعله جل جلاله، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو سبحانه مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب. وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

ولما حمد تعالى نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرد به بالحكم في ذلك

الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال في الآيات:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يُعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به الرسل. والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذته وانقياده. والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضاً بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك. والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

وذكر سبحانه الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وقُدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ.

قال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: دُلُّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية، وهذا من أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الشاء.

والهداية على نوعين، هداية طريق وهداية توفيق، وهداية التوفيق خاصة بالله تعالى ومنها قوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. والهداية الثانية هداية الطريق: وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي للأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطاً مستقيماً؛ لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مثل دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

فالمسلم يدعو الله ﷻ أن يوفقه إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى جنته، ويدعوه أن يوفقه للاستقامة عليه بعد معرفته، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ طريق من أكرمهم ووفقهم ومننت عليهم

بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، وأضاف سبحانه الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

قال ابن تيمية: فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر، فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم؛ فاستحقوا غضب الله.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: وغير صراط الضالين عن الهدى، وهم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلاً فكانوا على ضلال مبين.

قال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه: أولها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان، وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية، وثالثها: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنوبهم أكبر، فإن

الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

ومعنى آمين: اللهم استجب لنا، وليست آية من سورة الفاتحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه» [رواه البخاري].

وهذه السورة العظيمة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية وهو أفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته ﷻ.

وفي السورة أدعية شاملة نافعة، قال ابن تيمية: «أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه؛ دعاء الفاتحة».

وفي دعاء الفاتحة توسلان:

١ - توسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

٢- وتوسل إليه بعبوديته.

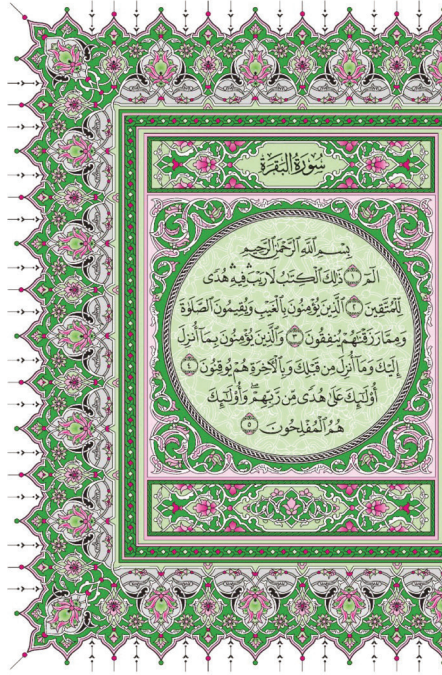
قال ابن القيم: وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء. وقال رحمه الله: «ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة؛ لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء. ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً».

وقد ورد في فضل هذه السورة العظيمة حديث قدسي عظيم، رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله ﷻ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله: أثني علي عبدي، فإذا قال:

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدني ما سأل».

تم تفسير سورة الفاتحة

والحمد لله.



تفسير سورة البقرة وهي مدنية

* سورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي سنام القرآن، وأكثر سوره أحكاماً وأجمعها لقواعد الدين، أصوله وفروعه، وهي من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج القواعد التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» ويقال لها: «فسطاط القرآن» لعظمتها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، ولما في قصة البقرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، من المعجزات والآيات الباهرات؛ حيث قتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله - جل وعلا - في إحياء الخلق بعد الموت، وفي السورة ألف أمر، وألف نهي، وألف خبر، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً.

وقد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث منها ما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة». وقال ﷺ: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» يعني السحرة.

وفي سورة البقرة آية الكرسي التي قال فيها النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» [رواه النسائي]، ولعظم هذه السورة ومكانتها قال أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرجل: إذا حفظ سورة البقرة كان سيداً عظيماً، مُقَدِّماً، إماماً.

* قال تعالى: ﴿الَمْ ١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾.

١ ﴿الَمْ﴾ هذه الحروف وغيرها من الحروف المقطعة في أوائل السور، الله أعلم بمراده منها، وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في مخاطبتهم، فينتبهوا إلى ما يلقي إليهم من آيات بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على إعجاز القرآن فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ومركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وهم أفصح الناس فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله وليس من عند محمد ﷺ.

قال ابن كثير: كل سورة تبتدى بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب.

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: هذا القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم والحق المبين، وأشار إليه بإشارة البعيد ﴿ذَلِكَ﴾ لعلو مرتبته، وعظيم منزلته.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: ولا شك بوجه من الوجوه في أنه من عند الله، وأنه الحق والصدق لمن تفكر وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد، فلما اشتمل على اليقين، وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين، قال:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هاد من الضلالة والشبه للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، وقال الحسن البصري: اتقوا ما حرم عليهم من الشرك والمعاصي، وأدّوا ما افترض عليهم من الطاعات والعبادات. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

* ثم يبين تعالى صفات هؤلاء المتقين القلبية، فقال:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم وعقولهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن، أو النبي عليه الصلاة والسلام من أمور الغيب.

* ثم ذكر أداؤهم للطاعات، وفعل الخيرات، فقال:

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها، ولم يقل: يفعلون الصلاة أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ«من» الدالة على التبعض، لينبههم أنه لم يُرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم وواسوا إخوانكم المعدمين، وكثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ لأن الصلاة حق الله وهي مشتملة على توحيده، وتمجيده والثناء عليه. والإنفاق

هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكل من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة، وعنوان من سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق.

* ثم ذكر ﷺ مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: والذين يصدقون بكل ما جئت به يا محمد عن الله تعالى من القرآن، وبما أنزل إليك من الحكمة وهي السنة. ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: ويصدقون بما جاءت به الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل وغيرهما، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله، وهذه خاصية المؤمنين؛ يؤمنون بجميع الكتب السماوية، وبجميع الرسل، فلا يفرقون بين أحد منهم.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعث وجزاء، وجنة، ونار، وحساب، وميزان، وإنما سميت الدار الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا، ولأن اليوم الآخر لا ليل بعده، وخص يوم الآخرة؛ لأن الإيمان به من أعظم البواعث على فعل الطاعات، واجتناب المحرمات ومحاسبة النفس.

* ثم ذكر ﷺ حال ومآل من اتصف بتلك الصفات العظيمة، فقال:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الحميدة، على رشد وبيان وبصيرة وعلم نافع من الله خالقهم وهاديهم؛ لأن التنكير للتعظيم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَكَانَ سَمْعُهُمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلُ اللَّهِ وَآيَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا يَقْبَلُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَشْفَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ آمِنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ أَنُؤْمِنُ بِالسُّفْهَاءِ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفْهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا قَالُوا ءَامِنُوا قَالُوا إِلَى شَيْطَانٍ هَزِيقٍ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتِ بِجَنَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا لَهَا بِمُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي:

وأولئك هم الناجون والفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم، وحصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم.

* لماذا ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، المعاندين للرسول ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتميز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكباراً وطغياناً، وصار الكفر وصفاً لهم لازماً، لا يردعهم عنه رادع. والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به وكفر به، وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود، وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب، وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أي: يتساوى عند هؤلاء الكفار، أحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم لإصرارهم على باطلهم وتماديهم في ضلالهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بما جئتهم به لعنادهم واستكبارهم، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له، والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول، وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله.

* ثم بيّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان والموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع على قلوب هؤلاء بطابع فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان ولا ينفذ فيها، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص.

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ أي: وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون؛ لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونونه ولا ينتفعون به، وهذه طرق العلم والخير قد

سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، وفي تقديم السمع على البصر دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ثم ذكر العقاب الآجل، فقال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

* لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين الخُلص، وأعقبها بذكر صفات الكافرين الخُلص، ذكر هنا الصنف الثالث وهم المنافقون، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار، قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامِنُونَ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: ومن الناس فريق يتردد متحيراً بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون، الذين يقولون بألستهم صدقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات.

﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وصدقنا بالبعث والنشور، والجزاء والحساب، فأكذبهم الله بقوله:

﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين؛ لأنهم

يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد، وكلاماً دون تصديق، فهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال، قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم عبدالله ابن أبي سلول، ومتعب بن قشير، والجد بن قيس، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعتة وصفته.

﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله والذين آمنوا بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون أن ذلك نافعهم عنده - جل وعلا -، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يُخدع؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. والنفاق هو إظهار الخير، وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار؛ لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: وما يغرون بصنيعهم هذا إلا أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم؛ لأن الله يُطلع نبيه ﷺ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ولا يحسون بذلك ولا يفتنون إليه، لتماذي غفلتهم، وتكامل حماقتهم وفساد قلوبهم.

* ثم ذكر تعالى ما تنطوي عليه قلوبهم، وتحمله صدورهم من الشك والشبهات والنفاق، فقال تعالى:

﴿١٠﴾ **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.**

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: في قلوبهم مرض في الدين، من شك وفساد ونفاق، وابتلوا بالمعاصي الموجبة لعقوبتهم، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، ووصفهم بالمرض لأن المريض يجد طعام الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحامض حلواً، أو الحلو مرراً، وكذلك هؤلاء المنافقون يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً. وفيه بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصي، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها، فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: ولهم عذاب مؤلم موجه بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن.

* ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة، وعدم استماعهم للدعوة والنصيحة، فقال:

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وإذا قال لهم بعض المؤمنين نصحاً وتنبهاً لهم: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر، والصد عن سبيل الله، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالة الكافرين؛ لأن من عصى الله فقد أفسد في الأرض.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: قالوا كذباً وجدالاً: ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك، وفيه حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح، فقد صوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرف التأكيد ﴿آلَا﴾ المنبهة.

﴿إِنَّهُمْ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور، فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، فإنه لا أعظم فساداً ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيله، وخادع أوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، ثم زعم مع ذلك أن هذا إصلاح، ولكن لا يفتنون ولا يحسون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم وأن ما يزعمونه من الإصلاح هو عين الفساد، لكنهم بسبب جهلهم وعنادهم لا يحسون.

* ثم ذكر تعالى نصيحة المؤمنين للمنافقين من وجهين، أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجره إلى الفساد، وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله كما آمن وأخلص أصحاب النبي - عليه الصلاة والسلام -.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمة للإنكار مع السخرية والاستهزاء، أي: جادلوا وقالوا: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة، أمثال: صهيب، وعمار، وبلال؛ ناقصي العقل والتفكير؟! بزعمهم أن سفههم أو جب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه، وإنما سفههم لا اعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، وفي ضمن ذلك أنهم هم العقلاء وأرباب الحجى والنهى، فرد عليهم سبحانه بأن السفه مقصور عليهم:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ألا إنهم هم السفهاء حقاً؛ لأن من ركب متن الباطل ورغب عن دين الله كان سفهياً بلا امتراء، فحصر السفاهة فيهم، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

* ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم، وما يقولونه بألسنتهم ما ليس في قلوبهم:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي: وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، وقالوا: صدقنا بالإسلام مثلكم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: قالوا لهم نحن على دينكم وطريقتكم، وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم، ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى رداً عليهم:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال، وهذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ومثل ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فالأول ظلم والثاني عدل.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ويزيدهم بطريق الإمهال والترك في

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجَنَّةُ الْأُولَى

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
 ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ
 بُكْمٌ عُصْفَانٌ لَا يُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
 ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْدِعُ لَهُمْ فِيءًا إِذَا أَنِمْ مِنْ
 الصَّوْعِ حَذْرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ كَذَآلِكَ يُرَى
 يَخْطُبُ أَبْصَرُهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
 قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنْ أَلَّهِ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبُّكُمْ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا
 بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ
 الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ضلالهم وكفرهم يتخطون ويترددون
 حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه
 سبيلاً؛ لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى
 أبصارهم، فلا يبصرون رشداً ولا
 يهتدون سبيلاً.

* ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة
 أحوالهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ

بِالْهُدَىٰ﴾ أي: أولئك المنافقون الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا
 الضلالة وتركوا الهدى، وعبر بالشراء المبين أنهم سلكوا هذا الطريق عن
 محبة وشغف، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾
 للتبرؤ منهم والبعد عنهم.

﴿فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: فما كسبوا شيئاً في
 تجارتهم باتباعهم الكفر بدل الإيمان. وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك؛
 لأنهم خسروا سعادة الدارين.

* ثم ضرب تعالى مثلين وضح فيهما خسارتهم الفادحة، وذكر مثلهم
 الكاشف لهم غاية الكشف، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: مثالهم المطابق في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه، كحال شخص نزل بصحراء في ليلة مظلمة فأوقد ناراً عظيمة ليستدفئ بها ويستضيء ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة، ذهب الله بنورهم، أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار، وعدم النور وذهب.

قال ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «ذهب الله بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»، وتأمل كيف قال:

﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم؛ لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، وتأمل كيف قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحد النور، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه الحق وجمع الباطل في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله:

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل، ووحيد سبيل الحق.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: وأبقاهم في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة الحساب، وظلمة الكفر، والظلمة الحاصلة بعد النور، مع خوف شديد مما رأوا حولهم من المخاوف، يتخبطون فلا يهتدون إلى طريق ولا مخرج، فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار، ثم نفى عنهم طريق الهداية كلها، فلهذا قال تعالى عنهم:

﴿صُمُّ﴾ أي: هم كالصم، لا يسمعون خيراً، فهم صم عن سماع الحق سماع تدبر.

﴿بُكْمٌ﴾ كالخرس، لا يتكلمون ولا ينطقون بما ينفعهم.

﴿عَمَى﴾ كالعمي لا يبصرون الهدى والحق ولا يتبعون سبيله.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فهم لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال وهذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به فهو بمنزلة الأعمى، وهذه حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه؛ فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

* ثم ثنى تعالى بتمثيل آخر للمنافقين زيادة في الكشف والإيضاح، فقال:

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ **﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَتْ وَرَعْدٌ وَبَرَقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.**

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أو مثل المنافقين في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، وهم يمشون في العراء، وأظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق.

﴿فِيهِ ظُلُمَتْ وَرَعْدٌ وَبَرَقٌ﴾ في ذلك السحاب ظلمات داجية، ورعد قاصف: وهو الصوت الذي يسمع في السحاب. وبرق خاطف: وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب.

﴿يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي: يضعون رؤوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق المحرقة، وذلك خوف الهلاك ومن فرط الدهشة والفرع، كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جملة اعتراضية، أي: والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيتته لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: يقارب البرق لشدة وقوته وكثرة لمعانه، أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة.

﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْآ فِيهِ﴾ أي: متى ما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا﴾ أي: وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه، وقفوا عن السير متحيرين وثبتوا في مكانهم. وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة مع خوفهم أن يخطف أبصارهم انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في أماكنهم خشية التردى في حفرة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ ولولا إمهال الله لهم، لسلب سمعهم وأبصارهم. وفيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية ليحذروا، وليرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إنه تعالى قادر على ذلك في كل وقت، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، وإنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر.

✽ ولما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضح طرق الضلال، أعقبه بخطاب إلى الناس كافة، ذكر فيه الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وعرف الناس بنعمه ليذكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو خطاب لكل الناس ممتناً عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم معجزة القرآن بأنصح بيان وأوضح برهان، ليقنع من القلوب جذور الشك والارتياب. وهو نداء من الله للبشر جميعاً

أمرًا لهم بالعبادة وناهيًا عن الشرك والمعصية، فأمرهم بما خلقهم له، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، واعبدوا الله ربكم الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته، ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق الذين من قبلكم من الأمم، وإنما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم؛ لأن جميع النعم مترتبة عليها، وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها دونها، وأيضاً فالكفار مقرون بأن الله هو الخالق.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوه وحده لا شريك له رجاء أن تكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح.

ولما ذكر تعالى فرق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، فعدد تعالى نعمه الظاهرة والباطنة عليهم، قال تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي: ربكم الذي صير لكم الأرض

مهاداً وقراراً، تستقرون عليها وتنامون وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي: وجعل السماء سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل من السحاب مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه. ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: فأخرج بذلك المطر أنواعاً من الثمرات وأنواع النبات رزقاً لكم، به تترزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكهون، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، فتعبدونهم كما تعبدون الله وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق، وهذا من أعجب العجب، وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وأن الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين.

* ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد وأنه لا إله إلا الله، ذكر الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن، ورد على حجج المشركين بدليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، قال تعالى:

﴿٢٣-٢٤﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۚ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: وإذا كنتم أيها الكافرون المعاندون في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريع، ونظمه، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ وتزعمون أنه ليس من عند الله، بل من محمد ﷺ وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، وليس بأفصحكم ولا بأعلمكم، وفي وصف الرسول ﷺ بالعبودية في هذا المقام، دلالة على أن أعظم أوصافه ﷺ، قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، وقد ذكر الله ﷻ وصف نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: فهاثوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان، وهذا أمر تعجيز وموقف تحدٍّ.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: واستعينوا بأعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن خاصة أنكم أهل فصاحة وخطابة، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى، من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ﷻ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين في زعمكم أنه مختلق وأنه من كلام البشر، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية

العجز، فهذا آية كبرى وبرهان جلي على صدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به. ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء.

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: ولن تقدروا في المستقبل لا محالة أيضاً على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل. قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا. و﴿وَلَنْ﴾ لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذاك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: فإذا لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله وعلمتم أنه من عند الله فأمنوا بهذا القرآن، وخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين. التي مادتها التي تشعل بها وتضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله.

﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين بالله ورسله، الجاحدين لرسالة محمد ﷺ، ينالون فيها ألوان العذاب المهيمن، وهذه الآيات ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا

الجزء الأول

سورة البقرة

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْكَمَتْ لَكُمْ قُرْمِيئُهُمْ ثُمَّ يُخَيِّمُكُمْ ثُمَّ إِلَٰهَهُ تَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

بمثل هذا القرآن، وفي الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

قال ابن مسعود: «هذه أخوف آية في القرآن؛ لأنها توعدت المؤمنين بعذاب الكافرين».

* ثم لما ذكر ما أعدده لأعدائه الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف عليه بذكر ما أعدده لأوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار ليكون العبد راغباً راهباً، خائفاً راجياً، فقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وبشر يا محمد المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، بشرهم خيراً يملؤهم سروراً وحبوراً. وجمع في الآية بين

الإيمان والعمل؛ فالجنة لا تنال إلا بهما، بعد رحمة الله ﷻ، وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمرتها، فإنها بذلك تخفف وتسهل.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة من الماء، واللبن، والعسل، والخمر.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ أي: كلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا قبل هذه المرة، قال المفسرون: إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قدم لهم مرة ثانية، قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل، فتقول الملائكة: كل يا عبد الله، فاللون واحد والطعم مختلف، قال تعالى:

﴿وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي: رزقاً متشابهاً في الشكل والمنظر والاسم، لا في الطعم والمخبر، وقيل يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة. قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء.

لما ذكر تعالى مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم، ذكر أزواجهم في الجنان، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: ولهم في الجنة زوجات من الحور العين، مطهرات من الأقدار والأدناس الحسية كالبول والحيض، والمعنوية كالكذب وسوء الخلق والفحش والحسد والغيرة، ولم يخصص سبحانه

نوع طهارة معين، ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنّ يوم القيامة أجمل من الحور العين.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: وهم في الجنة ونعيمها دائمون، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناء خالد لا يعتريه انقطاع.

* لما بينّ تعالى البيان الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يتطرق إليه شك، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار والمنافقون للقدح فيه، وهي أنه جاء في القرآن ذكر النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل. وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام رب الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، ورد عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حكم بالغة وعبر ناصحة، ومصالح عظيمة، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً. وفي القرآن الكريم بضعة وأربعون مثلاً. ومن ذلك:

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: سواء كان هذا المثل بالعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها. لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما شبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية وبين أن الناس انقسموا نحو هذه الأمثال إلى قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله فيعلمون حكمة الله في التمثيل بالصغير والكبير من خلقه فيفهمونها ويتفكرون فيها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ وأما الذين كفروا، فيتعجبون ويسخرون ويتحIRON، فيزدادون كفراً إلى كفرهم وضلالة إلى ضلالتهم، ويقولون: ما مراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة والحشرات الصغيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي: إن المراد هو الاختبار وتمييز المؤمن من الكافر؛ يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به وسخريتهم منه، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدى. ثم ذكر حكمته سبحانه في إضلال من يضلهم، وأن ذلك عدل منه تعالى.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: والله ﷻ ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته.

ثم عدد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين، فقال:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: ينكثون ما عهده إليهم في الكتب السماوية، وهذا يعم ويشمل العهد الذي بينهم وبينه، والذي بينهم وبين عبادته.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعم كل ما أمر الله به: من صلة الأرحام والقرابات، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وترك موالاة المؤمنين.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة.

* يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار، والمعنى: كيف

تجحدون أيها المشركون الخالق، وتنكرون الصانع وتشركون به غيره في العبادة، مع البرهان القاطع عليها في أنفسكم:

﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾ أي: وقد كنتم في العدم نطفًا في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات. خلقكم وأخرجكم إلى الدنيا، ونفخ فيكم الحياة. ﴿فَآَحْيَكُمُ﴾ عند انقضاء الآجال التي حددها لكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم يميتكم، ثم يعيدكم أحياء بالبعث من القبور يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تحشرون إلى الموقف عند الله سبحانه.

* لما ذكر تعالى مشاهد ودلالات من خلقهم يروونه من أنفسهم، ذكر جملة من النعم على عباده مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض برهانًا على البعث، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: الله وحده الذي خلق لأجلكم كل ما في الأرض من النعم لتتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: قصد إلى خلق السموات، فصيرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء، لا فطور فيها ولا صدوع؛ وذلك دليل القدرة الباهرة.

الجزء الأول

سورة البقرة

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنثَاهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ إِنِّي أَنبَأْتُكُمْ بِأَسْمَاءِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُثْبُوتُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدِي لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أُنثَاهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ إِنِّي أَنبَأْتُكُمْ بِأَسْمَاءِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُثْبُوتُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدِي لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أُنثَاهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ إِنِّي أَنبَأْتُكُمْ بِأَسْمَاءِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُثْبُوتُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وهو عالم بكل ما خلق وذراً، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك وهو أعظم منكم قادر على إعادتكم. بل إنه على كل شيء قدير.

* لما امتن تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتّن عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة،

وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يذكرهم بذلك، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر، وتنويعاً بذكره في الملائكة الأعلى، أي: واذكريا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة
يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وهو آدم، أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً،
قرناً بعد قرناً، وجيلاً بعد جيل لعمارته.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أي: قال الملائكة على سبيل التعجب
والاستعلام، واستكشافاً عن الحكمة في ذلك: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم
من يفسد في الأرض بالمعاصي.

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي: يريق الدماء بالبغي والاعتداء، وهذا تخصيص
بعد تعميم لبيان شدة مفسدة القتل.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: فإن كان المراد من خلقهم عبادتك، فنحن
نزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونعظم ذكرك ونظهره ونمجده بكل صفات الكمال
والجلال.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى للملائكة: إني أعلم من
المصالح ما هو خفي عليكم، ولي في خلق الخليفة حكمة لا تعلمونها، وهو
عالم - جل وعلا - بأن هذا الخليفة سيكون منه الأنبياء والرسل والصديقون
والشهداء والصالحون وقوم صالحون وساكنو الجنة.

* ثم لما كان قول الملائكة - عليهم السلام -، فيه إشارة إلى فضلهم على
الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم
ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، فقال تعالى:

﴿٣١-٣٣﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * .

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: وبياناً لفضل آدم عليه السلام، علمه الله أسماء الأشياء كلها، قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات على الملائكة، وسألهم امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟ ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته، والحاصل: أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم، ومن معرفة الأسماء والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي: ننزهك عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، فنحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه فضلاً منك وجوداً. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ أي: الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا تخفى عليك خافية بشؤون خلقك.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيرك الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

﴿قَالَ يَبْنَادُمْ أَنَبْئُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ أي: قال الله: أعلم يا آدم الملائكة بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها.

﴿فَلَمَّا أَنَبَّأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ أي: أخبرهم بكل الأشياء، وسمى كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها، تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فلما ظهر عجزهم، قال تعالى للملائكة تقريراً لهم: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: ما تظهرون بألسنتكم، وما تسرون من دعواكم، وما تخفون في أنفسكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم، روي أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ رأت الملائكة فطرته العجيبة، وقالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه.

* وبعد أن أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خص آدم ﷺ بالخلافة، كما خصه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، أضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم لآدم أكرمه الله به؛ ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم له، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِيَّةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمد للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة:

﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: سجود تحية وتعظيم وإظهار لفضله، لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: سجدوا جميعاً له غير إبليس. امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم وتعظيم في نفسه. ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: صار بإبائه واستكباره من الكافرين، العاصين لأمر الله حيث استقبح أمره بالسجود لآدم.

* لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة، ويأكلا منها ما شاءا رغداً هنيئاً سائغاً طيباً، قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي: وقال الله ممتناً: يا آدم اسكن في جنة الخلد أنت وزوجك حواء. وعبر بلفظ (السكن) دون غيره من الألفاظ التي تؤدي نفس المعنى إشارة إلى قصر وقت الإقامة في الجنة حينذاك. ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي: كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً كثيراً، وتمتعا بذلك هنيئاً. والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: كلا من أي أصناف الثمار والفواكه أردتما الأكل منه.
 ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تأكلا من هذه الشجرة حتى لا تقعا في المعصية، وفي هذا اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم عليه السلام، قال ابن عباس: هي الكرمة. والنهي عن القرب فيه سدٌّ للذريعة وقطع للوسيلة، ولهذا نهى عنه عوضاً عن النهي عن الأكل.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله وأمره.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: أوقعهما في الزلة بأن وسوس لهما وأغواهما بالأكل من الشجرة، فتسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها وما فيها من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.
 ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أي: قال الله لهم: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطاب لآدم وحواء وإبليس.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته.
 ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها. وتمتع بنعيمها وانتفاع بما فيها إلى وقت انقضاء آجالكم.

* فلما أمر الله آدم بالهبوط إلى الأرض استقبلا الأمر بالأخذ والقبول، والعمل به، قال تعالى:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.
 ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي: استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْمِزَّةُ الْأُولَى

قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَأَنَا فَاتُخِبُونَ ﴿٣٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُوا
الْحَقَّ وَآثَرُهُ تَعْمُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٣٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكُفُونَ ﴿٣٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٣٥﴾
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٣٦﴾
يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا
وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٨﴾

٧

إياها توبة واستغفاراً فدعاه بها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية.

والتلقي: هو قبول عن فطنة وفهم.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل ربه توبته، وغفر له ذنبه، ورحمه، وتجاوز عنه.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إن الله كثير القبول للتوبة، يتوب على من تاب من عباده، واسع الرحمة للعباد، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح، وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

و﴿التَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة؛ لأن هذه صفة لازمة لله ﷻ؛ فمن صفاته الكاملة التوبة، ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون، وأما ﴿الرَّحِيمُ﴾ فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

* لَمَّا دَعَا ﷻ البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ذكرهم بما أنعم به على أبيهم آدم.

﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: قال الله لهم: اهبطوا من الجنة جميعاً، كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والبيان أن إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة.

﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: وسيأتىكم أنتم وذرياتكم المتعاقبة رسول أبعته لكم، وكتاب أنزله عليكم وبيان وشريعة.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: من آمن بي وعمل بطاعتي، وأضاف هذا الهدى إلى نفسه؛ حتى يُعلم أن هذا الهدى حق ليس فيه باطل ولا تناقض ولا اختلاف.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا ينالهم خوف وفزع فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا حزن وندم على ما فاتهم من أمور الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا وكذبوا بما أنزلت وبما أرسلت.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مخلصون فيها لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

* يقول تعالى أمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد ﷺ ، وقد تفنن في مخاطبتهم، فتارة دعاهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم، وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل، فقال تعالى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ﴾ * وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: يا ذرية النبي الصالح يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام-.

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ اشكروا ما أنعمت به من نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والنجاة من فرعون، وغير ذلك مما أنعم الله عليهم. والذكر يكون بالقلب واللسان.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي: أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان بكتبي ورسلي جميعاً، وأن تعملوا بشرائعي.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ فإن فعلتم ذلك؛ أتمم لكم ما وعدتكم به من الرحمة في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

﴿وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: وإياي وحدي فاخشوني دون غيري. والرهبنة: شدة الخوف.

﴿وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ من القرآن الكريم الذي أنزلته على محمد نبي الله ورسوله.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقاً لما معكم من التوراة في أمور التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: أول من كفر من أهل الكتاب، فحقكم أن تكونوا أول من آمن لما عندكم من العلم ما ليس عند غيركم.
 ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية من مال ورياسة وغيرها.
 ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ أي: خافون دون غيري، فاعملوا بطاعتي واتركوا معصيتي.

* ثم قال تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل:
 ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٤، ٤٣)
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.
 ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ نهاهم عن شيئين؛ الأول: أن لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي افترطموه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ أي: واحذروا كتمان الحق الصريح من صفة نبي الله ورسوله محمد ﷺ التي في كتبكم، وهذا هو المنهي الثاني ومن جملتها البشارات في كتبهم ببعث النبي محمد ﷺ.
 ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: وادخلوا في دين الإسلام، بأن تأتوا الصلاة على الوجه الصحيح، كما جاء به النبي

الله ورسوله محمد ﷺ وتعطوا الحقوق المالية التي شرعها الله على لسانه، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ، وفيه الأمر بصلاة الجماعة ووجوبها.

* لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات ذمٌ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم، حيث كانوا يأمرُونَ بالخير ولا يفعلونه، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه، قال تعالى:

﴿٤٤﴾ **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: أَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ وَإِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ. والآية نزلت في بعض علماء اليهود، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا: اثبتوا على دين محمد فإنه حق، فكانوا يأمرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ. **﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾** أي: تتركونها فلا تؤمنون، ولا تفعلون الخير وهو الإسلام.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: حال كونكم تقرأون التوراة، وفيها صفة ونعت محمد ﷺ ووجوب الإيمان به.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تفتنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره، والعقل مأخوذ من عقل الدابة، وهو ما يُشَدُّ به ركة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود.

* ثم يَبَيِّنُ لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال، ونيل مطلوبهم فيما يؤملون من خيري الدنيا والآخرة، فقال:
 ﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ أي: اطلبوا المعونة على أموركم وحوائجكم كلها.
﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: بالصبر بجميع أنواعه، وبتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين، وهي من أكبر العون على الثبات في الأمر.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: إن الصلاة شاقة وثقيلة إلا على المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله وذلت لعظمته فإنها سهلة خفيفة، فهم يخشون الله ويرجون ما عنده. والخشوع هو: خضوع القلب وطمانينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك، ويستيقنون أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم.
﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء، فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات.

* ثم ذَكَرَ تعالى بني إسرائيل سالف نعمه وآلائه العديدة إلى آبائهم وأسلافهم، مرة أخرى، توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم، فقال:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. ٤٧

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يا ذرية يعقوب تذكروا نعمي الكثيرة عليكم واشكروا لي عليها بطاعتي.
﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: وتذكروا أني فضلت آباءكم على عالمي زمانهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب كالطورا والإنجيل، وجعلهم سادة وملوكا، وتفضيل الآباء شرف للأبناء.

* لما ذكر تعالى بني إسرائيل بنعمه، عطف على ذلك التحذير من طول نومه بهم يوم القيامة، وعظاً لهم وتحذيراً وحشاً، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ٤٨

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: خافوا واحشوا عقاب يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ أي: لا تقبل شفاعاة في نفس كافرة بالله أبداً.
﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به، ما تقبل منها.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله في ذلك اليوم، فنفي الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقلوه:

﴿يُذِخُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يذبحون الذكور من الأولاد خشية نموكم، ويستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة والامتهان، وإنما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات؛ لأن الكهنة أخبروا فرعون أنه سيولد من بني إسرائيل غلام يكون هلاكه على يده.

﴿وَفِي ذَالِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: فيما ذكر من العذاب المهيّن من الذبح والاستحياء، محنة واختبار عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم لتمييز البر من الفاجر، وكذلك نعمة الإنجاء إحسان من ربكم يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ أي: اذكروا أيضاً حين خرج فرعون وقومه في طلبكم، ففلقنا لكم البحر وفصلناه حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي: وأنتم تشاهدون ذلك ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم، ولتكون آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه، ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة، جعله الله تعالى نكالا لمن ادعى الربوبية، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء، انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء.

* ثم ذكر تعالى منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، قال تعالى:

﴿٥١-٥٣﴾ **﴿إِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾** * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * **﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** .

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم: حين وعدنا موسى أن نعطيهِ التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون، وخص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألد المناجاة فيه.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: فإذا بكم مدة غيابه عبدتم العجل الذي صنعتموه بأيديكم معبوداً لكم من دون الله.

﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد غيبة موسى حين ذهب لميقات ربه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً وأكبر إثماً، ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: ثم تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة والفعلة المنكرة من بعد عبادتكم العجل، وقبلنا توبتكم بعد عودة موسى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا نعمة الله عليكم، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة، ولا تتماذوا في الكفر والطغيان.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين أعطينا موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، وأيدناه بالمعجزات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

* ثم بين تعالى صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل: يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم.

﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: بعبادتكم للعجل.

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ أي: توبوا إلى من خلقكم خلقاً بريئاً من العيب والنقصان. قالوا: كيف نتوب؟ قال:

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل البريء منكم المجرم، وإنما عبر بقتل النفس لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: توبتكم بقتل أنفسكم.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي: رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ففعلتم ما أمرتم به، فمنَّ عليكم بقبول توبتكم.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: عظيم المغفرة، واسع التوبة لمن تاب من عباده، الرحيم بهم، يعفو الحوبة وإن كبرت.

* بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم بين لونا من ألوان طغيانهم وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان،

فإنه لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين من خيارهم، وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء، فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۚ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله حتى نرى الله معاينة، فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم وجرأتهم على الله بأن أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضكم لبعض ما حل بكم، ثم لما ماتوا قام موسى يدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم الله. قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي: أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. وكان ذلك الإحياء من الله ﷻ:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت. والشكر هو القيام بطاعة المُنعم، ويكون بالقلب وباللسان وبالجوارح.

* لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، ومن ذلك نعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم، وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِيلًا﴾ [المائدة: ٢٤] فعوقبوا على ذلك بالضياح أربعين سنة يتيهون في الأرض، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْهَامًا وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلَّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْهَامًا﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم تتيهون في الأرض وسترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلة.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ﴾ أي: أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب. والمن كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، والسلوى: طير يشبه السمانى لذيد الطعم.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله وطيباته، وهذه منة ثلاثة؛ لأن الإنسان ربما يتيسر له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعله فيه، فلا يحصل به كمال المنّة، ومع هذا العطاء لم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْمِزَّةُ الْأَوَّلُ

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا فَأَقْدَّ عَلَيْهِ كُلُّ نَاسٍ مُشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهَا وَعَدَسِيهَا قَالُوا اتَّبِعُوا الَّذِي هُوَ أَذْنُ الْبَازِي هُوَ خَيْرٌ أَمْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهَا فَإِنْ لَمْ يَمْسَأْ لَكُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَالَمِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ غَيْرَ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

٩

* ثم ذكر تعالى نعمة أخرى عليهم، حيث أمرهم بدخول بيت المقدس تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: واذكروا أيضاً نعمتنا عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: كلوا من طعام القرية وثمارها، في أي مكان أكلاً واسعاً هنيئاً.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه، ذليلين خاضعين له.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وقولوا: يا ربنا حط عنا ذنوبنا وخطايانا، واغفر لنا خطايانا.

﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: نمحو ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ونسترها عليكم بسؤالكم ذلك.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نزيد من أحسن إحساناً، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل فضلاً منا وإحساناً على إحسانهم المتقدم.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: فغير الظالمون الجائرون من بني إسرائيل أمر الله، فقالوا:

﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة، حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: فأنزل الله عليهم طاعوناً وبلاء، بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً.

* لا تزال الآيات تعدد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركون فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لموسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا، قال تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين دعانا موسى وتضرع إلينا أن نسقي السقيا قومه وقد عطشوا في التيه.
﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فأمرناه أن اضرب أي حجر كان، تتفجر بقدرتنا العيون منه.

﴿فَإَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: فضرب فتدفق الماء منه بقوة، وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد قبائلهم آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته.
﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ويزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربون متهئين لا متكدرين، ولهذا قال:
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كد منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله.
﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد فيسلبكم الله تعالى نعمته.

* ثم ذكر تعالى بعد إنزال النعم والخيرات عليهم كيف ضجروا وتبرموا، وطلبوا استبدال الطعام الطيب النافع بالأطعمة الدنيئة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أنزلنا عليكم الطعام الحلو، والطيير الشهوي، فقلتم لنيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى على وجه الاحتقار لنعم الله.

﴿لَنْ نَضِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: فبطرتم النعمة كعادتكم، وأصابكم الضيق والملل على نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى.
 ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: ادع الله وسله أن يرزقنا غير ذلك الطعام، فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه، ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول.

﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث.
 ﴿وَقَثَائِبِهَا﴾ يعني القشة التي تشبه الخيار.
 ﴿وَفُومِهَا﴾ أي: الثوم.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي: العدس والبصل المعروفين.
 ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: قال لهم موسى منكراً عليهم وموبخاً: ويحكم أستمبدلون الخسيس بالنفيس والحل الذي لا تطرقه الشبهة، وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى؟ هذا غير لائق بكم.

﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: ادخلوا من هذه البادية إلى أي مصر من الأمصار وبلد من البلدان أيّاً كان، لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء؛ لأنها تكون في الأمصار لا في التيه، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير الأطعمة وأشرفها فكيف تطلبونه بدلاً.

* ولما كان الذي منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله وأنهم يقدمون اختيارهم في كل موطن على اختيار الله، ويؤثرون شهواتهم على ما اختاره الله لهم. عاقبهم الله ﷻ:

﴿٦٦﴾ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.**

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: لزمهم الذل والهوان وفقر النفوس، وجعل عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة، فليست أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم، وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقماهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا تثبت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصي في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه، وما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ

الجزء الأول

سورة البقرة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ
 ءَآمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
 مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ فَوْقَ كُلِّ أُطُورٍ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
 مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا هَذِهِ خَمْسِينَ ﴿٧١﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا
 بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَآخِظَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بَقَرَةً قَالُوا
 أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٣﴾
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
 بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرَعُونَ بَيَّنَّا ذَلِكَ فَاذْكُرُوا مَا
 تُمْرُونَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تُمْرٌ أَظْيَرٌ ﴿٧٥﴾

١٠

الْحَقُّ أي: بسبب كفرهم بآيات الله
 جحوداً واستكباراً، وقتلهم رسل الله
 ظلماً وعدواناً.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ أي:
 بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على
 أحكام الله، وبما كانوا يعتدون على عباد
 الله، فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً،
 فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ
 عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنه أنواع البدع
 والكفر وغير ذلك.

* ثم دعا تعالى أصحاب الملل
 والنحل: المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين إلى الإيمان الصادق
 وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ ءَآمَنِ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المؤمنون: أتباع محمد الذين صدقوا بالله ورسله
 وعملوا بشرعه.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ والذين كانوا قبل بعثة محمد ﷺ من الأمم السالفة،
 كاليهود أتباع موسى.

﴿وَالنَّصْرَى﴾ نسبة إلى الناصرة قرية بفلسطين منها المسيح عليه السلام، وقيل سموا بذلك لأنهم نصروا عيسى واتبعوه.

﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدق الله، وصدق رسله، وأيقن بالآخرة والبعث والجزاء.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: عمل بطاعة الله في دار الدنيا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ليس على هؤلاء المؤمنين خوف

في الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب، وأما بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين والمرسلين إلى الناس كافة، فلا يقبل الله من أحد ديناً غير ما جاء به، وهو الإسلام.

* لما ذكرهم تعالى بالنعمة الجليلة العظيمة، أردف ذلك بيان ما حل بهم من نقم، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامره، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا في السبب فمسخهم الله إلى قردة، وهكذا شأن كل أمة عتت عن أمر ربها وعصت رسله، قال تعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة من الإيمان بالله وإفراده بالعبادة.
 ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ أي: نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم:
 ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة وصبر على أوامر الله.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه، لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين، فبعد هذا التأكيد البليغ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: خالفتم وأعرضتم عن الميثاق بعد أخذه كشأنكم دائماً؛ وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات.
 ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تدارككم بلطفه ورحمته حتى أظهرتم التوبة وقبولها.

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعفو عن الزلة والخطايا.

﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة بنقضكم ذلك الميثاق.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي: عرفتكم يا معشر اليهود ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: فلما خالفوا مسخهم الله قردة منبوزين مبعدين صاغرين، بعد أن كانوا بشراً.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: المسخة، وهذه العقوبة.

﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: عقوبة زاجرة لمن حضرها من الأمم، ولمن يأتي بعدها.

﴿وَمَا خَلَقَهَا﴾ أي: جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعانيتها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: عظة وذكرى لكل عبد صالح متق لله ﷻ ليعلم أنه على الحق، فيثبت عليه.

* لما ذكر تعالى قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله ﷻ في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامثال الأوامر التي يوحىها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام، إلى آخر ما هنالك من قبائحهم ومساوئهم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل جناية أسلافكم، وما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، وتدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد

يحدث بينكم شر كبير، وقال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة؛ وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض.

وإنما أمروا -والله أعلم- بذبح البقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبده من العجل ليهون عندهم ما يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

قال ابن القيم: ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهًا معبوداً من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: فكان جوابكم لنبيكم مستكبرين أن قلتم: أتَهْزَأُ بنا يا موسى وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: فقال نبي الله موسى: ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسفه.

* فلما علموا أن ما قال لهم موسى حق وصدق بدأوا في مطالب عجيبة وغريبة على سبيل التعنت والتكبر:

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ * قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظْرِينَ * قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ

سورة البقرة

الجزء الأول

قَالُوا أَنْعِنَا رَبَّنَا إِنَّ الْبَقَرَةَ شَيْءٌ عَيْنًا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ أَذْلَلُ
 ثِيْرًا الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا
 أَفَلَن جِنَّتٍ بِالْحَقِّ فَدَجَّبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِذْ
 قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
 ﴿٧٥﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
 ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
 مِنْهَا لَمَاءً يَسْقَى خَشْيَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَافِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ
 ﴿٧٧﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكَفَرِ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحْمَلُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا
 خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُؤْمِنُونَ بِمَا نَحْنُ بِمَا نَحْنُ
 عَلَيْهِمْ لِيَحْجُوكَ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾

١١

لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
 لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
 مُسَلَّمَةً لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ
 بِالْحَقِّ فَدَجَّبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * .

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

أي: ادع لنا ربك يوضح لنا صفة هذه البقرة
 وما سنها وهل هي كبيرة أو صغيرة؟

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ
 وَلَا بِكْرٌ﴾ أجابهم موسى: إن الله يقول
 لكم: صفتها أن لا تكون كبيرة مسنة
 هرمة، ولا صغيرة فتية.

﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وسط بين الكبيرة والصغيرة.

﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر، وزجر لهم عن العنت، أي: فسارعوا
 إلى امتثال أمر ربكم من ذبح البقرة، ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم.
 ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ عادوا إلى جدالهم، وقالوا: ما هو
 لونها أبيض، أم أسود، أم غير ذلك؟

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظْرِينَ﴾ قال موسى
 إنه يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل من رآها.
 والسرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ لم ينزعوا عن غوايتهم، بل أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سننها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير فقالوا:

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لكثرة البقر وتشابه وصفها التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها.

﴿وَأَنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله إذا أخبرنا، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا أبداً كما ثبت في الحديث.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ قال لهم موسى: إن الله يقول إن البقرة ليست مسخرة لحرثة الأرض، ولا لسقاية الزرع بل هي مكرمة.

﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: حسنة، سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لونها، فهي صفراء كلها.

﴿قَالُوا أَلَمْ نَجِئْكَ بِالْحَقِّ﴾ الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس، قال تعالى إخباراً عنهم.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لعنادهم، وفي هذا ذم لهم، وهكذا شددوا فشدد الله عليهم.

* ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال:

﴿وَاِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللّٰهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتٰى وَيُرِيكُمْ ءَايٰتِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَاِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ اذكروا يا بني اسرائيل حين قتلتم نفساً، وتخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره. ﴿وَاللّٰهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مظهر ما تخفون من قتل القاتل. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا القاتل بشيء من البقرة؛ فإن الله سيبعثه حيّاً، ويخبركم عن قاتله، فضرّبوه ببعضها، فأحياه الله وأخبر بقاتله. ﴿كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتٰى﴾ كما أحيّا هذا القاتل أمام أبصاركم بقدرته، كذلك هو يحيي الموتى ويعيّنهم من قبورهم.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايٰتِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ ويريككم يا بني اسرائيل دلائل قدرته ومعجزاته الباهرة لتفكروا وتتدبروا، وتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فتطيعوا أمره، وتمتنعوا عن معاصيه.

* ثم أخبر تعالى عن جفاء بني اسرائيل وقسوة قلوبهم، وأنهم لم ينتفعوا بذلك، فقال موبخاً لهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسُوَةً وَاِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْاَنْهَارُ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ أي: صلبت قلوبكم وغلظت ويبست وخلت من الإنابة والإذعان يا معشر اليهود؛ فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم المعجزات الباهرة.

﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعضها كالحجارة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد، ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ لأن من الحجارة ما يتسع وينفجر وتنصب منه المياه صباً، فتصير أنهاراً جارية.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ومن الحجارة ما يتصدع إشفافاً من عظمة الله فينبع منه العيون والينابيع.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: ومن الحجارة ما يتفتت ويردى من رؤوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخضع، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد وتهديد.

* ولما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال، وجبلوا على العناد والمكابرة، قاطعاً لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، فقال تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ * أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم، وينقادوا لكم بالطاعة. نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة، وكانوا يودون لو أسلموا، فأنزل الله تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: والحال أنه قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً واضحاً جلياً.

﴿ثُمَّ يُخْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ، قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به فأظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم، ما ليس في قلوبهم.

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إذا انفردوا اختلى بعضهم ببعض، قال بعضهم لبعض، عاتيين منكبين عليهم: أتخبرون أصحاب محمد بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ.

﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم، قال تعالى ردّاً عليهم وموبخاً:

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحِزْبُ الْأَوَّلُ

أَوَّلًا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَتْ بِهِ هُدًى خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْيَدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ألا يعلم ويدرك هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان.

* ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرفوا وبدلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم، ونبه أنهم في الضلال سواء، فقال:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: ومن اليهود طائفة من الجهالة العوام، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها من صفات نبي الله ورسوله محمد ﷺ.

﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أي: وما عندهم من ذلك إلا ما هم عليه من الأكاذيب والظنون الفاسدة التي مناهم بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

ثم ذكر تعالى صنفاً آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى:

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك وعذاب لأولئك الذين حرفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يقولون لأتباعهم الأمين، هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فقد ظلموا الناس من وجهين: من جهة تلبس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق.

﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فلهم عقوبة مهلكة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، وويل لهم مما يصيرون مقابل ذلك من المال الحرام كالرشوة وغيرها.

* ثم ذكر عليه السلام إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي: وقال بنو إسرائيل لن ندخل النار إلا أياماً قلائل، أربعون يوماً عدد أيام عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط، فقال الله ﷻ تكذيباً لهم:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك. ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ لأن الله لا يخلف وعده.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه -جل وعلا-.

* ثم بين تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها، وذكر حكماً عاماً لكل أحد، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم، فقال:

(٨١)، (٨٢) ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتبهون، بل إن الأمر أنه من عمل سيئة واقترب محرماً.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ غمرته من جميع جوانبه، وسدت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود وهذا لا يكون إلا فيمن أشرك بالله.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله، فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات مخلدون في الجنات لا يخرجون منها أبداً.

* لا تزال الآيات الكريمة تعدد جرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم العهد المؤكد غاية التأكيد في التوراة.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر بالتوحيد ونهي عن الشرك، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله على عباده، ثم قال:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال:

﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء، واليتامى الذين مات أبائهم وهم صغار، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب وذلك بصلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وأن تقولوا للناس أطيب الكلام بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيب، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، والدعوة إلى الله ﷻ وكل ذلك الإحسان يكون امتثالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنتين العظيمين: الصلاة والزكاة؛ لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية، والصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ثم أعرضتم ونقضتم العهد والميثاق إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه وأنتم مستمرون في إعراضكم.

* ثم يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحَبَشَةُ الْأُولَى

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ
 فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَبِعَذَابِنَا يَسْتَمِدُّونَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
 ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
 بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ
 الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا
 غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾

١٣

أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ
 مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ
 وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ
 وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
 بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ
 فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا
 خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة بأن لا يقتل بعضكم بعضاً. ﴿وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون ببلزومه. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتم بعضكم بعضاً، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي: كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم بغياً وعدواناً.

﴿وَإِنْ يَأْتِوكُمُ اسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾ إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي: فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان. والكفر ببعض آيات الله كفر بالكتاب كله، ولهذا عقب تعالى ذلك بقوله:

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذل وهوان، ومقت وغضب في الدنيا، وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي: وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشد منه؛ لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله.

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة.

﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يفتّر عنهم العذاب ساعة واحدة بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

* لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أمدهم الله بها، ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي: ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعنا على أثره الكثير من الرسل من بني إسرائيل وأرسلناهم.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته، وشددنا أزره وقويناه بجبريل عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحِزْبُ الْأَوَّلُ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
وَكُنُوزٌ مِنْ قَبْلِهِمْ تَنْقِيحُوتُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَنبَأَهُمُ
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ
(٨٨) بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
بَعَثْنَا أَنْ نُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
فَبَاءُوا وَبَغَضُوا عَلَى عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ
(٨٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تِلْكَ آيَاتُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّا وَهِيَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا
مَعَهُمْ قُلْ فَايْمَنُ تَقُولُونَ أَتُنَبِّئُكَ أَنَّ كُنُوزَهُمْ
مُؤَمَّنِينَ (٩٠) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا ثُمَّ
اتَّخَذْتُمْ آلِهَتَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩١) وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبَكُمْ وَأَعَصُوا عَصِييَتَنَا
وَأَشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٢)

١٤

﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ تكبرتم عن اتباعهم، فطائفة منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم، فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها توبيخ وتشديد عليهم.

* ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف، فقال حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: وقال بنو إسرائيل لنبي الله ورسوله محمد ﷺ، قلوبنا في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله، والغرض إقناعه ﷺ من عدم إيمانهم واعتذارهم عنه، قال تعالى رداً عليهم:

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر كما ادعوا؛ لأن قلوبهم خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، لكن قلوبهم ملعونة، مطبوع عليها، طردت من رحمة الله وأبعدت بسبب كفرهم وضلالهم وجحودهم وزيفهم. ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فقليل من يؤمن منهم، أو يؤمنون إيماناً قليلاً، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض الآخر وهذا لا ينفعهم.

* ثم ذكر حالهم بعد نزول القرآن العظيم، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وحين جاء اليهود القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين، مصدقاً لما في التوراة، جحدوه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم مشركي قريش، ويقولون: اللهم انصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نفعه في التوراة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة؛ كفروا برسالته وكذبوه.

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين.

* ثم ذمهم الله ﷻ على كفرهم وعنادهم، فقال:

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَشْتَرُوْا بِهٖۤ اَنْفُسَكُمْۙ اَنْ يَّكْفُرُوْا بِمَاۤ اَنْزَلَ اللّٰهُۤ بَغْيًاۙ اَنْ يُّنَزِّلَ اللّٰهُ مِنۡ فَضْلِهٖۤ عَلٰۤى مَنۡ يَّشَآءُۙ مِنْ عِبَادِهٖۙ فَبَآءُوْا بِغَضَبٍۭ عَلٰۤى غَضَبٍۭ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ مُّهِیْنٌ﴾.

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَشْتَرُوْا بِهٖۤ اَنْفُسَكُمْ﴾ أي: قبح ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم.

﴿اَنْ يَّكْفُرُوْا بِمَاۤ اَنْزَلَ اللّٰهُ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان.

﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وطلباً لما ليس لهم.

﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحيًا من فضله على من يشاء، ويصطفيه من خلقه، وهو ما أنزل الله من فضله من القرآن على نبي الله ورسوله محمد ﷺ.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم بسبب جحودهم بالنبي ﷺ، وكذلك بسبب تحريفهم التوراة. وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال؛ لأن كفرهم بسبب التكبر والحسد، فقبلوا بالإهانة والصغار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: وإذا قال بعض المسلمين لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدقوه واتبعوه. ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ استكبروا واعتدوا، وقالوا: يكفيكنا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قل لهم يا محمد، إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً، فلم تكتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذ كنتم فعلاً مؤمنين؟

* ثم ذكر تعالى طائفة أخرى من قبائح وجرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق

حتى رفع جبل الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان، فعبدوا العجل من دون الله، وزعموا أنهم أحباب الله، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم، وعادوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وكفروا بالأنبياء والرسل، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج الباهرات والمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وغير ذلك مما ذكره الله في القرآن العظيم.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ومع تلك الآيات الباهرة عبدتم العجل من بعد ذهاب موسى إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، متجاوزون حدود الله.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوق رؤوسكم جبل الطور قائلين:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم وأسقطناه عليكم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْمِزَّةُ الْأُولَى

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٧﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠١﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَدَّلْنَاهُ فَرِيقًا مِّنْهُمْ بَلْ أَعْتَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّلُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا أُوْلَئِكَ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْكُفْرَ

﴿وَأَسْمَعُوا﴾ سماع قبول وطاعة واستجابة.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال اليهود: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ وذلك؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم، وخالط حبه قلوبكم، وتغلغل في سويدائها، بسبب تماديكم في الكفر.

﴿قُلْ يٰٓأَمْرُكُمْ بِهِ ۖ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: قل لهم

أيها الرسول على سبيل التهكم بهم؛ قبح ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، إن كنتم تزعمون الإيمان؛ فبئس هذا العمل والصنيع، والمعنى: لستم بمؤمنين؛ لأن الإيمان لا يأمر بقتل الأنبياء ولا بعبادة العجل.

* ثم رد الله ﷻ على دعاوهم الباطلة، مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨] فكذبهم الله ﷻ وألزمهم الحجة، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ قل يا محمد لليهود الذين يدعون أن الجنة خاصة بهم، وذلك على وجه صحيح دعواهم؛ لا يشاركونهم في نعيمها أحد لزعمتهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم أبنائه وأحبائه، إن كان الأمر كذلك:

﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ، وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ. قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة:

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لن يتمنوا الموت أبداً معاشوا، لما يعرفون من صدق النبي ﷺ، وبسبب ما اجتراحوه من الذنوب والآثام، وهذا من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك، وفي ذلك تهديد لهم. ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا، فقال:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: ولتعلمن أيها الرسول أن اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة، أيًا كانت هذه الحياة من الذلة والمهانة، بل تزيد رغبتهم في طول الحياة على رغبات المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، وفي هذا بيان لزيادة حرصهم.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: وما طول العمر مهما عُمِّرَ بمبعده ومنجيه من عذاب الله.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها، وهذا تهديد لهم على سوء أعمالهم.

* ثم أمر ﷺ محمداً ﷺ بالرد على اليهود حين قالوا: إن جبريل هو عدونا من الملائكة.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قل لهم -يا محمد-: من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله؛ لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا؛ لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ الآية.

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى، وإنما خص الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: موافقاً لما سبقه من الكتب السماوية، وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بخيري الدنيا والآخرة.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى على الوجه الأخص جبريل وميكائيل فهو كافر عدو لله، وخصهما بالذكر من جملة الملائكة تفضيلاً وتخصيصاً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله، ففيه الوعيد والتهديد الشديد.

* لما ذكر تعالى ما جُبل عليه اليهود، من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه، ثم انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو جبريل الأمين عليه السلام، أعقب ذلك بيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وعدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما أَلَقَتْ إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلوكوا معه هذه الطريقة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩-١٠٣)

أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا

جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا
الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا
يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا
يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ خَلْقٍ وَلَيْتَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه:
اللام، وقد، والقسم المقدر، أي: والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات
واضحات دالات على نبوتك وصدقك، تحصل بها الهداية لمن استهدى،
وإقامة الحجة على من عاند، ومن تلك الآيات ما حواه القرآن من خفايا
علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل.
﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ وما يجحد بهذه الآيات الواضحة البينة
ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة، الماردون على الكفر.

﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وما أقبح حال بني إسرائيل في
نقضهم للعهد، فكلما عاهدوا عهداً طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه،
وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

سورة البقرة

الجزء الأول

وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا الشَّيَاطِينَ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
 سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
 السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ
 وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا
 تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
 وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ
 اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ
 أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
 وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَدْعُوا
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٦

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بل أكثر
اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق،
لذلك ينقضون العهود والمواثيق.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾
ولما جاءهم هذا الرسول الكريم وهو
محمد ﷺ بالكتاب العظيم.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة
وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً
لنبوة موسى عليه السلام.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ﴾ أي: طرح

أحبارهم وعلمائهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية؛ لأنها تدل على نبوة
محمد ﷺ فجحدها وأصروا على إنكار نبوته.

﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً.
﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا الشَّيَاطِينَ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ واتبعوا طرق السحر
والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: وما كان سليمان ساحراً ولا كافر، وفي هذا تكذيب
للشياطين، ودفع لما بهت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وقد آتاه الله
ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الريح، وسخر له الشياطين.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ولكن الشياطين هم الذين كفروا باستعمال السحر وتدوينه وتعليمه الناس حتى فشا أمره بين الناس وأفسدوا دينهم. لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أبحار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾ وكما اتبع رؤساء اليهود السحر؛ كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: وما يعلم الملكان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة، ويقولوا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشيطان، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحتهما لئلا يكون لهم حجة، ثم ذكر تعالى مفاصد السحر، فقال:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ فيتعلم الناس من الملكين من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق.

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما هم بما استعملوه من السحر يضرّون أحداً إلا بعلمه ومشيئته سبحانه.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع؛ فليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ولقد علم اليهود الذين نبدوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله، ولا من الجنة، لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ولم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار.

* ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وأفعالهم، وحذر من مكر اليهود وحقدهم وحسدهم للمؤمنين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه، فيقول:

﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لا تقولوا للرسول محمد ﷺ راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقى علينا فافهم عنا وأفهمنا؛ لأن اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ، يلوون ألسنتهم بها، ويقصدون سبه ونسبته إلى الرعونة.

﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ وقولوا أيها المؤمنون بدلاً منها: انتظرونا وارتقبنا، وهي تؤدي المعنى المطلوب نفسه.

﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم، فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبوه، عذاب أليم موجه.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير لا قليلاً ولا كثيراً، بغضاً فيكم وحسداً لكم، وهذا من شدة عداوتهم للمؤمنين.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان، وفيه إشعار بأن إتياء النبوة من الفضل العظيم. والفضل ابتداء إحسان بلا علة، والإنسان إذا طلب الفضل من أهله، وهو ﷺ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعا الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ﷻ سهل الله أمره، وآتاه من فضله.

* ثم قال تعالى ردّاً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ.

الجزء الأول

سورة البقرة

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٠٧﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ۖ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَأَصْغَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٨﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٠﴾ بَلْ مِنْ أَسَاوِرَ وَجْهَهُ دِلَّةٌ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١١﴾

١٧

﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: ما نبدل من حكم آية فنغيره بآخر، أو ننسها -يا محمد-، أي نمحها من قلبك، روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا

كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً فنزلت ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ نأت بأنفع لكم منها أيها المؤمنون في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم، ولكل حكمة من لدنه، وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ وَأَمْتُكَ أَنَّ اللَّهَ عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ المالك المتصرف في شؤون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟ ويأمر عباده وينهاهم كيفما شاء، وعليهم الطاعة والقبول.

﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: فإن عصيتم فما لأحد من دون الله من ولي يتولاهم، أو ناصر ينصرهم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين، فمن ولايته لكم أن يُشرع لكم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته.

* ثم نهى ﷺ المؤمنين بأن يسألوا رسولهم؛ أسئلة تعنت واعتراض وسؤال عن الأشياء قبل كونها؛ كما سُئل من قبل موسى عليه السلام، قال تعالى:

﴿١٨﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم بقصد العناد والمكابرة ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فتضلوا كما ضلوا، ولما كان هذا الأمر منهياً عنه مذموماً قد يصل بصاحبه إلى الكفر، قال:

﴿وَمَن يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ من يستبدل الضلالة بالهدى، ويأخذ الكفر بدل الإيمان.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي.

* ثم يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، قال تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تمنى كثير من اليهود والنصارى.

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ لو يصيرونكم كفاراً تعبدون الأصنام بعد أن آمتم وأسلمتم لله.

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: بسبب الحقد الذي امتلأت به نفوسهم، من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة صدق نبي الله ورسوله محمد ﷺ وأن دينكم هو الحق.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي: اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم على جهلهم. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ حتى يأذن الله لكم بقتالهم، وسيعاقبهم لسوء أفعالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل شيء، فينتقم منهم إذا حان الأوان. ثم أمرهم تعالى بقوله:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: حافظوا على عمودي الإسلام وهما الصلاة والزكاة وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله في الآخرة.

الْحِزْبُ الْأَوَّلُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا
أُولَئِكَ مَأْوَاهُ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقِيُّ
وَالْمَغْرِبِيُّ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ اللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿١٣٢﴾
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١٣٣﴾ يَدْبَعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٣٤﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ
قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٣٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٣٦﴾

١٨

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي:
رقيب عليكم مطلع على أعمالكم
فيجازيكم عليها يوم الدين.

* ذكر ﷺ في الآيات الكريمة بياناً آخر
لأباطيل أهل الكتاب؛ حيث ادعى كل
من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة
خاصة به وطعن في دين الآخر، فاليهود
يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم،
ويكفرون بعيسى وبالإنجيل، والنصارى
يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم
بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم،
ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها

الأنواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقف عليه،
فأكذب الله الفريقين، وبين أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل
الصالحات، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ
لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ﴾

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ ادعى كل من اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بطائفتهم لا يدخلها غيرهم، فقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: تلك مجرد خيالاتهم وأحلامهم الفاسدة.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل لهم يا محمد اتنوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم. ثم ذكر تعالى البرهان والحجة الجليلة العامة لكل أحد، فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ ليس الأمر كما زعموا أن الجنة تختص بطائفة دون غيرها، إنما يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله وحده لا شريك له، وهو مخلص مراقب لله في كل أقواله وأفعاله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو مؤمن مصدق متبع لرسول الله ﷺ؛ فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون صوابًا خالصًا لله وحده، والآخر أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة وهو دخول الجنة، ولا يعترهم حزن أو كدر على ما فاتهم من حظوظ الدنيا؛ فحصل المرغوب، ونجوا من المرهوب. ثم ذكر تعالى ما بلغ بأهل الكتاب من الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضًا، وكفر بعضهم بعضًا.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: كفر اليهود بعيسى وقالوا: ليست النصارى على دين صحيح معتد به، فدينهم باطل.

﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: وقال النصارى في اليهود مثل ذلك، وكفروا بموسى.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ والحال أن اليهود يقرؤون التوراة، والنصارى يقرؤون الإنجيل وفيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعاً، ولهذا فقد كفروا عن علم. عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كذلك قال الذين لا يعلمون من مشركي العرب مثل قول أهل الكتاب، قالوا: ليس محمد على شيء.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فالله يفصل بين اليهود والنصارى، ويفصل بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ويجازي كلاً بعمله.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك، أي: لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان بيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش.

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي: ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع؛ فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لأولئك المذكورين هوان وذلة في الدنيا، وعذاب عظيم في الآخرة وهو عذاب النار.

ومن تأمل: قلما تجبر متجبر في الأرض إلا أهانه الله قبل موته، فسخر به الصغير والكبير، وأضحى حديث المجالس، قال ابن كثير: لما استكبروا لقاهم الله الذلة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: لله جهتا شروق الشمس وغروبها وما بينهما، وخصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة وإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات فهو مالك الأرض كلها، وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم.

﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضىها لكم، فأنتم لم تخرجوا من ملكه وطاعته، وقد نزلت الآية فيمن

أضاع جهة القبلة، وفيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع الخلق بالجلود والإفضال؛ فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، عليم بتدبير شؤونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

* لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركون فيها أحد، أعقبه بذكر بعض قبائحهم في ادعائهم أن الله ولدًا حيث زعم اليهود أن عزيزاً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله؛ فأكذبهم الله ورد دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ۚ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وقالت اليهود والنصارى والمشركون اتخذ الله لنفسه ولدًا، فاليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأؤوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو تعالى صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه، فأكذب الله الجميع في دعواهم، فقال:

﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تقدس وتنزه عما زعموا من القول الباطل تنزهًا بليغًا،

فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليس الأمر كما زعموا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها؛ عزيز، والمسيح، والملائكة. ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ الكل عبيده منقادون له، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما وقد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، وهو قادر على كل شيء، فكيف تجعلون له ولداً وقد خلق كل شيء، وبدع السموات والأرض. ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾ إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة، فمتى أردا شيئاً وجد بلمح البصر، فمراده نافذ، وأمره لا يتخلف، فلا يستعصي عليه، ولا يمتنع منه، وفي هذا بيان لكمال قدرته وعظيم سلطانه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي: قال الجهلة من المشركين، وهم كفار قريش، هلا يكلمنا الله مشافهة، أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله، قالوا ذلك للنبي ﷺ على سبيل العناد والعتو.

﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ أي: تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكبار وعناداً.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسولهم.

﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد وطلب المحال، والتكذيب للأنبياء، وفي هذا تسلية له ﷺ.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وضحنا الأدلة، وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به.

* ثم ذكر تعالى بعد ذلك آية موجزة مختصرة جامعة في إثبات نبوة محمد ﷺ، فقال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أرسلناك يا محمد بالشرعية النيرة والدين القويم، بشيراً للمؤمنين بجنت النعيم، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: أنت لست بعد البلاغ مسؤولاً عما عملوا من يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم فإنهم ملازمون للنار يوم القيامة. والجحيم: ما عظم من النار.

* ثم ذكر تعالى حال اليهود والنصارى مع المؤمنين وشدة عداوتهم، فقال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَابِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا

الجزء الأول

سورة البقرة

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ
 إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
 جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٩﴾ الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
 يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٠﴾ يَبْنِي أَيْسَرَهُ بَلْ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ
 الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَصَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا
 لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
 شَفَعَةُ ۚ وَأَهُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
 فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ
 لَا بَتَالَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١١٣﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
 وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ
 ﴿١١٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ
 مِنَ الشَّمْرِ إِنَّ مِنَ اللَّهِ وَابِينَ ۚ قَالَ وَمِنْ مَنَّهُمْ آدَمُ ۚ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
 فَأَعْتَبُ ۚ قَلِيلًا مُّذْ أَنْطَرُهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَشَىٰ الْمَصِيرُ ﴿١١٥﴾

١٩

لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ
 أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ * وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا
 النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ولن
 ترضى عنك يا محمد الطائفتان؛ اليهود
 والنصارى حتى تترك الإسلام المنير،
 وتتبع دينهم الأعوج؛ لأنهم دعاة إلى
 الملة والدين الذي هم عليه، ويزعمون
 أنه الهدى، فقل لهم:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين
 الحق الذي أرسلت به، وما عداه فهو ضلال، بدليل قوله:

﴿وَلَئِنْ آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ولئن سائرهم على
 آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة
 والحجج القاطعة.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ليس لك من ينفعك ويحفظك
 أو يدفع عنك عقابه الأليم، وفيه تهديد ووعد شديد للأمة عن اتباع طرائق
 اليهود والنصارى، ثم قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: الذين أعطيناهم
 الكتاب من اليهود والنصارى، يقرؤونه قراءة حقة كما أنزل.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: ويؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسول الله ومنهم خاتمهم محمد ﷺ،

ولا يحرفون ولا يبدلون ما جاء فيه دون المعاندين المحرفين لكلام الله. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأما الذين بدلوا بعض الكتاب وكتبوا بعضه فهو لاء كفار بنبي الله محمد ﷺ وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشد الناس خسراناً عند الله.

* ثم ذكرهم تعالى بآلائه ونعمه وأفضاله عليهم وقد سبق مثل هذا في صدر السورة، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي، فإنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم، ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم، قال تعالى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم، واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم بكثرة أنبيائكم، وما أنزل عليهم من الكتب.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: خافوا واحذروا ذلك

اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس، ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً؛ لأن كل نفس بما كسبت رهينة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء ينجيها من العذاب.

﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾ ولا تفيدها وساطة أحد؛ لأنها كفرت بالله.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه.

* يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى من الأوامر والنواهي، فقال:

﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾

﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ واذكر يا محمد حين اختبر وامتحان الله عبده إبراهيم الخليل، بما شرع من تكاليف، وكلفه بجملة من أوامره ونواهي، فقام بهن خير قيام، وأتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً. وابتلاء الله العباد ليُعَلِّمَ أحوالهم بالابتلاء؛ لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدى بك، ويحتذى حذوك، جزاء على ما فعل من القيام بالأوامر وترك النواهي. فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته، ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يُكثَّرَ فيهم المرشدون.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال إبراهيم رب اجعل من بعض نسلي أئمة فضلاً منك، فأجابه الرحيم اللطيف إلى ذلك، وأكبر الأئمة من ذريته محمد ﷺ، وأخبر أنه سيكون من ذريته غير ذلك، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال الله تعالى لا يصيب الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وخط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام العظيم.

* ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام، الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يأتون إليه من كل جانب ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون شوقاً إليه.

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلناه مكاناً آمناً يأمن من لجأ إليه، لا يغير عليهم عدو فيه، وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾.

قال السدي: أما المثابة فهو الذي يثوبون إليه كل سنة، لا يدعه الإنسان إذا أتاه مرة أن يعود إليه.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقلنا للناس اتخذوا من المقام وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى، أي صلوا عنده، ويستحب أن تكون ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم.

* ثم ذكر تعالى مكانة البيت وعظمته بأن وصى إبراهيم وإسماعيل وأمرهما أن يعتنيا به ويطهراه من النجاسات الحسية والمعنوية، قال تعالى:

﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوصينا إبراهيم وأمرناه وولده إسماعيل. ﴿أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: أمرناهما بأن يصونا البيت من الشرك والكفر والمعاصي، ومن النجاسات والأقذار ليكون معقلاً للطائفين حوله، والمعتكفين الملازمين له، والمصلين فيه، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام: الطائفين، والمعتكفين، والمصلين. وقدم الطواف؛ لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأن من شروطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى، وخص الركوع والسجود؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة، وأضاف سبحانه البيت إليه تشريفاً وتكريماً، ويقتضي ذلك شدة الاهتمام والعناية به.

ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: قال إبراهيم داعياً لهذا البيت: أن يجعله الله بلداً ذا أمن، يكون أهله في أمن واستقرار.

﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات؛ لأنه لم يكن لهم ثمرة، وكانوا بوادٍ غير ذي زرع، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك، وخص بدعوته المؤمنين تأديباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى جواباً له:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ أي: قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن، فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، أما الكافر فأمتعته في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ ثم بعد هذا التمتع ألجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار، فلا يجد عنها مهرباً.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. وقد قاس الخليل الرزق على الإمامة؛ فنبه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر؛ بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين.

ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق.

الجزء الأول

سورة البقرة

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِئْ قَالَ أَسْمِعْتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَعَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَآلَهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَجَدًا وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا أَنْتُمْ مُّعْمِلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي: واذكريا محمد ذلك الأمر الغريب، وهو رفع الرسولين العظيمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت وهو الكعبة وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه، وهما يقولان بخضوع وإجلال.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ينيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة، قائلين: يا ربنا تقبل منا بناءنا، أي: اقبل منا عملنا هذا،

واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت السميع لدعائنا، العليم بنياتنا. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ اجعلنا ثابتين على الإسلام، خاضعين لك، منقادين لحكمك.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ واجعل من أولادنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا. ولما كان العبد مهما كان لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة، قالوا:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: تجاوز عنا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

* ولا تزال الدعوات من إبراهيم وإسماعيل ترتفع لنفع الأمم والأجيال:

﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: ابعث في الأمة رسولاً من أنفسهم، ليكون أرفع لدرجته، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة، وهذا من جملة دعواتهما المباركة، فاستجاب الله الدعاء ببعثة محمد ﷺ فهو من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ آيات القرآن عليهم حتى يفهموه علماً وفهماً وعملاً، ولهذا قال:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعلمهم القرآن العظيم، والسنة المطهرة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من رجس الشرك والمعاصي وسوء الأخلاق؛ ولهذا كان ﷺ متمماً لمكارم الأخلاق. وقد جمعت الآية حفظ القرآن وفهمه والعمل به.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

* لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان، قال تعالى:

﴿١٣٠-١٣٢﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * .

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: لا يترك دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء وينحرف عنها إلا من استخف نفسه وامتنعها بتركه الحق إلى الضلال. ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترنا إبراهيم من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة، ويكون من اتبع ملته مصطفى في هذه الدنيا، ويكون في الآخرة من الصالحين، كما كان إبراهيم عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المقربين الذين لهم الدرجات العلى. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي: وسبب هذا الاختيار: مسارعته لأمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد دون تردد.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاستجاب إبراهيم وقال: استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه، إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ وحث الخليل إبراهيم أبناءه باتباع ملته، وكذلك يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم أوصى بملة إبراهيم.

﴿يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ يا أبناءنا إن الله اختار لكم هذا الدين وهو دين الإسلام؛ رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فاثبتوا على الإسلام وقوموا به حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به، وفيه إيجاز بليغ.

* ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكرًا عليهم:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالْآلَةَ آبَائِكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْهَآ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: ما كنتم حاضرين يعقوب وقد أشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم. وفي هذه حرص الأب على أبنائه، وأنه ينبغي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله ﷻ ولا تعبد غيره.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به، أي شيء تعبدون من بعد موتي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالْآلَةَ آبَائِكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْهَآ وَاحِدًا﴾ فأجابوه بما قرت به عينه، فقالوا: لا نعبد إلا إلهًا واحدًا ولا نشرك به شيئًا غيره، هو الله رب العالمين، إله آبائك وأجدادك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وذكر إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية؛ لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن له وحده مطيعون خاضعون، والغرض تحقيق البراءة من الشرك، وقد جمعوا بين التوحيد والعمل.

ثم قال تعالى مشيرًا إلى تلك الذرية الطيبة والأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون:

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْمِزَّةُ الْأُولَى

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
 أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ
 رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾
 فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ﴿١٣٢﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
 عَابِدُونَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ اتَّخَذْتُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّكُمْ
 وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٤﴾
 أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَغْلَى الْأَمْرِ
 اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِلٍ غَافِلِينَ ﴿١٣٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾

٢١

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك جماعة
 قد مضت وسلفت، والإشارة إلى
 إبراهيم وبنيه.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لها
 ثواب ما كسبت، ولكم ثواب ما كسبتم.

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 أي: لا تسألون يوم القيامة عما كانوا
 يعملون في الدنيا؛ بل كل نفس تتحمل
 وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء لا ينفع
 أحداً إلا إيمانه وتقواه.

* لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي
 ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن

بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما
 عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية
 والنصرانية، وبين أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد
 جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين
 جميع الأنبياء والمرسلين. قال تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
 كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ وقال اليهود لأمة محمد ﷺ:
 كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا، وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا، فكل من
 الفريقين يدعو إلى دينه المعوج.

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ جَوَابًا شَافِيًا؛ بَلْ الْهُدَايَةُ أَنْ تَتَّبِعَ جَمِيعًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَالُ كَوْنِهِ مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقِيمِ، فَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا مُوَحِّدًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَفِيهِ تَعْرِيزُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَإِذَانُ بِأَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ شَرِكٌ وَضَلَالٌ.

* ثُمَّ أَرْشَدَ ﷺ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَفْصَلًا، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مَجْمَلًا، قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ قُولُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: صَدَقْنَا بِاللَّهِ الْوَاحِدِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالسَّنَةِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَى نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قُولُوا ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى الْإِعْلَانِ بِالْعَقِيدَةِ، وَالصَّدْعِ بِهَا وَالِدَعْوَةِ إِلَيْهَا، إِذْ هِيَ أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أَي: وَآمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ مِنَ الصَّحَفِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي كَانَ الْأَنْبِيَاءُ مُتَعَبِّدِينَ بِهَا، وَكَذَلِكَ حَفْدَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَهُمْ الْأَسْبَاطُ حَيْثُ كَانَتِ النَّبُوَّةُ فِيهِمْ، وَفِيهِ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ وَمَا أُعْطِيَ مُوسَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ، وَعِيسَى مِنَ الْإِنْجِيلِ.

﴿وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً من وحي ربهم، ونصدق بما جاؤوا به من عند الله من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات، وفيه دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والآخروية.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بهم كلهم بأنهم كلهم رسل الله، صادقون فيما جاءوا به من الوحي، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأمر الله، خاضعون لحكمه بالطاعة والعبادة. وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

* ثم ذكر تعالى حال من اتبع طريق المؤمنين، فقال سبحانه:

﴿فَإِنْ عَامَنُوا بِمِثْلِ مَا عَآمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ فإن آمن من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين مما جاء به الرسول ﷺ من الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب فقد اهتدوا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم كما اهتديتم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه، فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم، وينصرك عليهم، وهذا ضمان ووعد من الله لإظهار رسوله عليهم، وقد أنجز وعده، وسلط رسوله عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هو تعالى يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر والحسد والغل.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وهو ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، ولا أحد أحسن من الله صبغة، أي: ديناً.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ ونحن مطيعون، نعبده - جل وعلا - ولا نعبد أحداً سواه، فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً، وفيه بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة.

* يقول الله تعالى مرشداً نبيه محمداً ﷺ إلى درء مجادلة المشركين:

﴿١٣٩-١٤٠﴾ **﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾** * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ قل -يا محمد - لأهل الكتاب: أتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وهو ﷻ رب الجميع على السواء، وكلنا عبيده لا يختص بقوم دون قوم، يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده.
﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ ولنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يتحمل أحد وزر غيره.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: قد أخلصنا الدين والعمل لله لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد أحداً غيره. ثم ذكر تعالى دعوى أخرى منهم، ومحااجة في رسل الله، حيث زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أم تدعون وتجادلون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى، فرد الله عليهم:

﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمَ اللّٰهُ﴾ هل أنتم أعلم بدينهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية، فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟ وفيه تقريع وتوبيخ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله، وهي شهادة عندهم، مودعة من الله، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من الأنبياء الكرام أنهم كانوا على الإسلام.

﴿وَمَا اللّٰهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مطلع على أعمالكم وأحصاها ومجازيكم عليها، وفيه وعيد شديد.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررها؛ لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي: إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أخرى وأولى. وفي الآية قطع للتعليق بالمخلوقين، وعدم الاغترار بالانتساب إليهم، وأن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده، واتباع رسله، وأن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل.

* زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً ونصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس، وكان ﷺ وهو بمكة يستقبل بيت المقدس، فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء، ولقنه

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحِزُّ الثَّانِي

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣ ﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَنَعْلَمُنَّ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤ ﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَنِلْنَاكَ وَمَا أَتَتْ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَ هُمُومٍ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّكَ إِذَا لَمَرَبِ الظَّلَالِينَ ١٤٥ ﴾

٢٢

الحجة الدامغة ليرد عليهم، ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له ﷺ، وهذه الآية العظيمة اشتملت على معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه، قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣ ﴾

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ أخبرهم ﷺ أنه لا بد أن يقول ضعفاء العقول والجهال من الناس من اليهود ومشركي العرب وأمثالهم، في سخرية واعتراض.

﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ ما الذي صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبلة المرسلين من قبلهم؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ قل لهم - يا محمد - إزالة لهذه الشبهة وكشفها، الجهات كلها لله، له المشرق والمغرب فليست جهة من الجهات خارجة عن ملكه، وله أن يتصرف في ملكه بما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين، وفي هذا إشعار بأن الشأن كله لله في امتثال أوامره، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، وأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وكما هديناكم إلى الإسلام، كذلك هديناكم أيها المسلمون إلى الطريق الصحيح في الدين وجعلناكم أمة عدولاً خياراً.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: بسبب عدالتكم وحكمكم بالقسط جعلكم الله شهداء، لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلكم بلغتهم الرسالة. ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فإن شك شاك في فضلها، وطلب مزيكاً لها، فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلماذا قال تعالى: ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم رسالة ربه. وقيل: ويكون الرسول شهيداً على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم. وهذه الآيات شرف هذه الأمة، منها: وصف الأمة بالعدل والخيرية، ومنها: أن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكى، ومنها: أن المزكي لا يحتاج للتزكية.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وما أمرناك - يا محمد - بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة بمكة.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ إلا لنختبر إيمان الناس، فنعلم من يُصدق الرسول، ويطيعك ويستقبل معك حيث توجهت، ومن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ونفاقه، وهو علم يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وإن كان هذا التحويل في القبلة لشاقاً وصعباً على الظالمين، لكنها سهلة على الذين هداهم الله فعفرُوا بذلك نعمه عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سأله ﷺ عن من مات وهو يُصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية وقول وعمل، وقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للحكم أي: إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها. والرافة أرق من الرحمة، وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم.

* ثم ذكر تعالى سبباً آخر من أسباب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فقال:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثيراً ما رأينا تردد بصرك - مرة بعد مرة يا محمد - جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة، وانتظاراً للنزول الوحي إليك في شأن القبلة، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فلنوجهنك إلى قبلة تحبها، -وهي الكعبة- قبلة أبيك إبراهيم. وفي قوله ﴿تَرْضَاهَا﴾ دون تحبها أو تهواها دلالة على أن ميل الرسول ﷺ إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس، وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن تكون قبلة؛ فهي أول بيت وضع للناس بالتوحيد، وفي استقبال بيت المقدس أولاً، ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وحيثما كنتم أيها المسلمون من الأرض فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً. عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فقال السفهاء من الناس -وهم

اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إلى آخر الآية، [أخرجه البخاري].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وإن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله ثابت في كتبهم، ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات حيث يعلمون أن الله سيوجهك إليها مما عرفوه من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، ولهذا تهددهم تعالى بقوله:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ غَمًّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

* لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم، فإنهم ما تركوا قبلك لشبهة عارضة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً، فقد كان من كمال حرصه على هداية الخلق بذل غاية النصح والتلطف في هدايتهم ودعوتهم، وكان يحزن لعدم استجابتهم، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب.

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي: والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة وبرهان على صدقك في أمر القبلة،

ما تبعوك - يا محمد - عناداً واستكباراً لأنهم لا يريدون الحق، ولا صلوا إلى قبلك، لأن اتباع القبلة دليل على أتباعه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ﴾ ولست أنت بمتبع قبلتهم مرة أخرى بعد أن حولك الله عنها، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة، حيث قالت اليهود: ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن تكون صاحبنا الذي نتظره تغييراً له ﷺ.

وفي الآية إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله به.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلك - يا محمد -.

﴿وَلَيْسَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ولئن فرض أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ولم يقل سبحانه (اتبعت دينهم)؛ لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة.

﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهيج للثبات على الحق وأمة داخله في ذلك.

* ثم يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا ۚ سَيَكُونُونَ فِي سَعَةٍ مِّنْ رَّبِّكَ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهُ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِنَّمَا تَكُونُونَ يَاطِئَاتٍ بِكُرْهٍ لِّلَّهِ جَمِيعًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ۖ قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَهُوَ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا لِلَّهِ بِغَفِيلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ۖ قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۚ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ وَلَا تَمْنُنْ بِعِلَّتِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۚ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكَ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۚ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَنذَرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون ۚ (١٥٢) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۚ (١٥٣)

٢٣

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى.

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرفون محمداً معرفة تامة لا امتراء فيها وذلك بأوصافه المذكورة في كتبهم؛ كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين.

﴿وَأَنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأحبارهم - الذين لم يسلموا ليخفون الحق ولا يعلنونه، ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت

لديهم بأظهر النعوت فهم يكتُمون أوصافه عن علم وعرفان.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: ما أوحاه الله إليك - يا محمد - من أمر القبله هو الدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين، والخطاب للرسول والمراد أمته.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهُ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِنَّمَا تَكُونُونَ يَاطِئَاتٍ بِكُرْهٍ لِّلَّهِ جَمِيعًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ ولكل من أهل الأديان المختلفة قبله يتوجهون إليها في عبادتهم، مائلين إليها بوجوههم.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون متسابقين إلى فعل الطاعات والأعمال الصالحات التي جاء بها دين الإسلام، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قمم الجبال، يجمعكم الله للحساب ولو تفرقت أجسامكم وأبدانكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه قادر لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض. ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل كالصلاة في أول وقتها والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها فله ما أجمعها وأنفعها من آية.

* ثم كرر تعالى أمراً ثالثاً من الله تعالى لاستقبال القبلة في مكة لتأييد النسخ، قال تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ومن أي مكان خرجت إليه مسافراً فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة.

﴿وَأَنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وأن توجهك إليه لهو الحق الثابت من ربك، وكرره لبيان تساوي حكم السفر والحضر. وما الله بغافل عما تعملونه، وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ومن أي مكان خرجت -يا محمد- فتوجه إلى المسجد الحرام، وحيثما كنتم أيها المسلمون بأي قطر من أقطار الأرض فولوا وجوهكم نحو المسجد الحرام، هذا أمر ثالث، باستقبال الكعبة المشرفة، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كانت أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار؛ لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة، قال تعالى:

﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ عرفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود احتجاج مخاصمة ومجادلة، فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا، فتكون لهم حجة عليكم، أو كقول المشركين: يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضررونكم، وخافوني بامثال أمري واجتناب نهيي.

﴿وَلَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي أتم فضلي عليكم بالهداية إلى قبة أبيكم إبراهيم، والتوفيق لسعادة الدارين، وبهذا تهتدون إلى

الحق والصواب، فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد تلك النعم المتممات لهذا الأصل. (ولعل وعسى) من الله واجب.

* بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران، بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٥١، ١٥٢)
* فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ*.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة، أرسلنا فيكم رسولاً منكم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يقرأ عليكم آيات القرآن المبينة للحق من الباطل، ويظهر أخلاقكم ونفوسكم من الشرك وقيح الفعال وسيء الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعلمكم أحكام القرآن وألفاظه ومعانيه، والسنة النبوية المطهرة.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ويعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم السابقة ما كنتم تجهلونه.

﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: اذكروني بالعبادة والطاعة، أذكركم بالشواب والمغفرة. وذكر الله تعالى أفضل ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ وهو الذكر

الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال:

﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ وخصوني بالشكر قولاً وعملاً، واشكروا نعمتي عليكم، ونهى عن ضد الشكر وهو الكفر، ولا تكفروها بالجحود والعصيان، فكم أنعمت عليكم بالنعم ودفعت عنكم صروف النقم. والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة. قال النووي -رحمه الله-: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما، بل كل عامل بطاعة، فهو ذاكراً لله تعالى.

* لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ يا أيها المؤمنون استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، وحافظوا على الصلاة التي تطمئن بها النفس وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحِزْبُ الثَّانِي

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

أي: هو تعالى معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد، وفي الآية إتيان معية الله الخاصة بالمؤمنين، المقتضية لما سلف ذكره، أما المعية العامة المقتضية للعلم من الإحاطة فهي لجميع الخلق. وفي ذكر المعية الخاصة بالمؤمنين ترغيب إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، ولو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً.

ولما ذكر ﷺ الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ﴾ لا تقولوا أيها المؤمنون فيمن يقتلون مجاهدين في سبيل الله: هم أموات.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بل هم أحياء عند ربهم يرزقون، حياة خاصة بهم في قبورهم، لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى، ولكنكم لا تحسون بها ولا تشعرون بذلك؛ لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة، وفي هذا دليل على نعيم القبر.

* ثم أخبر تعالى أنه لا بد أن يتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنة الله في عباده، قال تعالى:

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّافَّاتِ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَنُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَّا نَتُوبُ الرَّحِيمِ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ مَنَآؤُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُ كُفُّوا إِلَهُ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل خوف الأعداء ومن الجوع، ونقص من الأموال، بتعسر الحصول عليها أو ذهابها، إما بجوائح سماوية، أو غرق وضياع، أو أخذ الظلمة للأموال، وغير ذلك. ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، ونقص من ثمرات النخيل والأعناق والحبوب، بقلة ناتجها أو فسادها، وموت بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار، ونوع الابتلاء يسير؛ لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله، أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك، وتنكير شيء للتقليل، أي شيء قليل من هذه الأمور.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشر - يا محمد - الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب. ثم بين تعالى تعريف الصابرين وصفتهم التي يتميزون بها عن غيرهم، بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه، استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله مدبرون بأمره وتصريفه يفعل بهم ما يشاء لأن ذلك تسليم ورضا، وقالوا: إنا إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء وهذه الكلمات ملجأ للمصابين،

وعصمة للممتحنين فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله، والاعتراف بالبعث والنشور، وأن الدنيا ليست آخر كل شيء.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾
 أولئك الموصوفون بما ذكر، لهم ثناء وتمجيد ورحمة عظيمة من الله،
 والصلاة من الله الرحمة، والرحمة ذكرها تعالى تأكيداً، وهم المهتدون إلى
 طريق السعادة.

* لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر
 والصلاة، أعقب ذلك بيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الصفا والمروة اسم لجبلين بمقربة من البيت الحرام
 من جهة الشرق.

﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام دينه ومناسكه الظاهرة التي تعبد الله عباده
 بالسعي بينهما.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: من
 قصد بيت الله للحج، أو قصده للعمرة، فلا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما،
 فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالإصنام، فاسعوا أنتم لله رب
 العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين. عن أنس
رضي الله عنه أنه سُئِلَ عن الصفا والمروة، فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما
 جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ من تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ إنه سبحانه شاكر له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، فإنه تعالى شاكر يثيب على القليل بالكثير، والشكر من الله تعالى أن يعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير، عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين، ولا يبخل أحدًا مثقال ذرة، والشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر.

* ثم نبه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمان، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ أي: يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية.

﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ أولئك الموصوفون بقبائح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرفون لأحكام التوراة، وهم أحبار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم، يلعنهم الله فيبعدهم ويطردهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله، فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته.

﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات، الرحيم بهم، إذ وفقتهم للتوبة وقبلتها منهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: كفروا بالله وجحدوا الإيمان وكنتموا الحق، واستمروا على ذلك حتى جاءهم الموت وهم على تلك الحالة. ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يلعنهم الله وملائكته، وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين في اللعنة والنار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - . ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع ولا يخفف عنهم طرفة عين.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهلون أو يؤجلون، بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

✽ لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عدیل؛ بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم. فقال:

﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ إلهكم أيها الناس المستحق للعبادة إله واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه وأفعاله، عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لا معبود بحق إلا هو - جل وعلا - مولی النعم ومصدر الإحسان، المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وفي هذا تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته.

✽ لما ذكر سبحانه ألوهيته، ذكر تعالى الأدلة التفصيلية، على وحدانيته وقدرته، وعظمته، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي، ثم بتعاقب الليل النهار، ثم بالسفن التي تمر عباب البحار، ثم بالإمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان، وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في جميل خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم، فقال تعالى:

سورة البقرة

الجزء الثاني

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْجُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَوْرَأُوهُمُ الْعَذَابِ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الْأَرْضِ حُلَاحِلًا يَتَّبِعُونَ
خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

٢٥

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنْ فِي إِبْدَاعِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
بِمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنِيعَةِ وَدَلَائِلِ
الْقُدْرَةِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا وَاتْسَاعِهَا،

وكواكبها السيارة والثوابت، ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها
وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من
المنافع، وغير ذلك، وذكر السموات بلفظ الجمع، والأرض بلفظ الواحد،
لأن كل سماء من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب.
﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه
النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: وفي السفن الضخمة
الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي محملة بالأثقال من جانب
إلى جانب، بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع والمكاسب.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر وفرق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب المختلفة، في أحجامها وأشكالها وألونها وأصواتها. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ وما أنعم به عليكم من تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ولينة وعاصفة؛ وسميت الرياح ريحاً لأنها تريح النفس. قال ابن عباس: أعظم جنود الله الرياح والماء.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الغيم المذلل بقدر الله، سمي سحاباً؛ لأنه ينسحب، أي يسير في سرعة كأنه يُسحب ويُجر، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات. قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض.

﴿لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي، وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم مستحق للعبادة وحده.

* لما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته، أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله وجعلوا له أنداداً مع هذه البراهين القاطعة والدلائل الباهرة، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ ومع هذا البرهان النير، من المشركين من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً، أي: رؤساء وأصناماً. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: حب المؤمنين لله أشد وأثبت وأدوم من حب المشركين لآلهتهم، لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده وأنه المتفرد بها جميعاً.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وأن عذاب الله شديد أليم، وجواب «لو» محذوف، أي: لرأوا ما لا يوصف من الهول والفضاعة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ هناك تبرأ الرؤساء من الأتباع. ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ حين عاينوا العذاب يوم القيامة، وتقطعت بينهم الروابط، وزالت المودات التي ارتبطوا بها في الدنيا؛ من القرابة، والأتباع، والدين، وغير ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرؤوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل.

﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب، قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنه تعالى كما أراهم شدة عذابه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم.

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

* لما بين تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام، لأنه تعالى رب العالمين، فأحسانه عام لجميع الأنام وورقه لجميع خلقه، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم - جل وعلا - والأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرمه الله من أنواع الخبائث. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ الخطاب عام لجميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، أي: كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات ليس بغصب ولا سرقة، حال كونه مستطاباً في نفسه؛ غير ضار بالأبدان والعقول كالميتة والدم ولحم الخنزير.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجَنَّةُ الثَّانِي

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْرٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفْرًا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّةَ الْخِزِيرَ وَمَا أَهَلَ بِهِ لَعْنٌ لَهِ مِنْ أَضْطَرَّ غَيْرَتِهِ بَلَغَ ءَلَاغٍ فَلَئِمَّا عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْكُرُونَ بِهِ ءَثْمًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْهَرُوا الْأَبْصَالَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا

تقتدوا بآثار الشيطان وطرقه فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش والبدع والمعاصي.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إنه

عظيم وبين العداوة لكم، وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل، ثم ذكر عداوته، فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾

أي: لا يأمركم الشيطان بما فيه خير، إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات، وما تنهى في القبح من الرذائل كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل

لكم، وتحليل ما حرم عليكم، فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم، ويدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْرٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قال المؤمنون ناصحين أهل الضلال والشرك: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل.

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أجابوا بقولهم: لا نتبع دينكم بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من عبادة الأصنام، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتنفير من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء.

ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهو لاء الكفار كالذباب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان، ولهذا قال تعالى:

﴿صُمُّ بِكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هؤلاء الكفار صم عن سماع الحق، بكم، أي: خرس عن النطق به، عمي عن رؤيته، فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالذباب، فهم في ضلالهم يتخبطون.

* ثم أمر ﷺ عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم وأن يشكروه على ذلك، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه، ولا تكونوا كالكفار الذين يحرمون الطيبات، ويستحلون الخبائث، وخاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم.

﴿وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى، إن كنتم تخلصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه، فإن من مقتضى العبادة الحق أن يشكر الإنسان ربه ﷻ، ثم ذكر تعالى تحريم الخبائث:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ أي: ما حرم عليكم إلا ما يضركم من الخبائث، كالميتة التي لم تذبح بطريقة شرعية، والدم المسفوح: أي السائل، ولحم الخنزير بجميع أجزائه، وخص اللحم؛ لأنه المقصود بالأكل.

﴿وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ وما ذبح لغير الله، كما يذبح للإصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها.

﴿فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: ومن فضل الله عليكم وتيسيره أن أباح لكم أكل هذه المحرمات عند الضرورة، بشرط ألا يكون ساعياً في فساد، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة، لكنه ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه، فلا عقوبة عليه ولا ذنب في الأكل.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد، ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة. وقيل في سبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

* ثم توعد ﷺ بوعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يخفون صفة النبي ﷺ المذكورة في التوراة، وهم اليهود. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود كعب ابن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر

محمد ﷺ ونعته وأمر شرائعه، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ الآية.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ويحرصون على أخذ عوض قليل من حطام الدنيا مقابل هذا الإخفاء.

﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: هؤلاء إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يكلمهم كلام رضى ورحمة كما يكلم المؤمنين؛ بل يكلمهم كلام غضب وسخط عليهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا يطهرهم من دنس الذنوب والكفر ويصيبهم وينالهم عذاب مؤلم، وهو عذاب جهنم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات استبدلوا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان.

﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ واستبدلوا عذاب الله بمغفرته، والجحيم بالجنة.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما أشد صبرهم وجرأتهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جرأة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي وباشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، وفي هذا تعجب من حالهم. ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه التوراة ببيان الحق فكتبوا وحرفوا ما فيه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ إن الذين اختلفوا في تأويله وتحريفه وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

* ولما ذكر تعالى شقاق اليهود والنصارى في أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة، وادعى كل من الفريقين -اليهود والنصارى- أن الهدى مقصور على قبلته، رد

الله عليهم وبين أن العبادة الحقّة وعمل
البر ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق
والمغرب، ولكن بطاعة الله وامتنال
أوامره، والتوجه حيثما وجهه، واتباع ما
شرع، قال تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ
قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ
مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَتَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَعَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ وَالْحُرِّ الْعَبْدُ وَالْعَبْدُ الْأَنْثَىٰ
بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَمِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّهِ
إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ
أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ تَدَلَّاهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ
فَاتَّبَعُواهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يُدْلُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ
بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ليس الخير عند
الله محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب إن لم
يكن من أمر الله وشرعه.

قال القرطبي: «اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل
البر، لا بسبب الأمر بالبر».

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إنما الخير كل الخير هو الإيمان بالله والتصديق به معبوداً وحده لا شريك له، والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء وكل ما أخبر الله به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ وأن يؤمن بالملائكة كلهم والكتب المنزلة، والرسول من غير تفريق.

﴿وَعَآتَى الْمَالِ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ أعطى المال تطوعاً - مع شدة حبه - ذوي قرابته، فهم أولى بالمعروف فإن دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء.

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وأعطى المال أيضاً لليتامي الذين فقدوا آباءهم، والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله.

﴿وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة، وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء.

﴿وَأَقَامِ الصَّلَاةَ﴾ وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنيتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي.

﴿وَعَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه، وقرن سبحانه الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: الصابرين على

الشدائد والأمراض، وحين القتال في سبيل الله؛ لأن الجلاذ والقتال يشق غاية المشقة على النفس.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم، وأولئك هم الكاملون في التقوى. وفي الآية ثناء على الأبرار، وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان.

* ثم يمتن ﷺ على عباده المؤمنين بأن فرض عليهم القصاص وأحكامه، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشعره؛ فرض الله عليكم أن تقتصوا من القاتل عمداً بقتله بشرط المساواة، دون بغي أو عدوان، إقامة للعدل والقسط بين العباد، ثم بين تفصيل ذلك، فقال:

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ اقتصوا من الجاني فقط، فإذا قتل الحر الحر فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلاً بمثل، ولا تعتدوا فقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء، وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه.

﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فمن سامحه ولي المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه، أو عفا بعض الأولياء، بأن ترك وليه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية - وهي قدر مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه - وفي الآية تريق وحث على العفو إلى الدية وأحسن من ذلك العفو مجاناً، وإطلاق وصف الأخ على المماثل في الإسلام أصل جاء به القرآن، وجعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الأخوة بل أشد.

﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ فعلى العافي اتباع للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاب، وعلى القاتل أداء للدية إلى العافي - ولي المقتول - بلا مطل ولا بخس.

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ما شرعته لكم من العفو إلى الدية، تخفيف من ربكم عليكم، ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل. وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم بقتله قصاصاً في الدنيا، أو بالنار في الآخرة.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَّتَأُولَىٰ أَلَلْبَبِ﴾ ولكم - يا أولي العقول - في تشريع القصاص وتنفيذه بقاء وحياة، وأيّ حياة؛ لأنه من علم أنه إذا قتل

نفساً قتل بها، يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياء من أراد قتله، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس. والتذكير في:

﴿حَيَوةٌ﴾ للتعظيم، وتلك الحياة العظيمة هي ما فيه من ارتداع الناس عن قتل النفوس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث الموت.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه.

* ثم ذكر آيات كريمة فيها الأمر بالوصية بالوالدين والأقربين، قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوَصِّ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: فرض عليكم يا معشر المؤمنين إذا أشرف أحدكم على الموت بمرض أو حضور أسباب المهالك، وقد ترك ما لا كثيراً، وجب عليه الوصية بجزء من ماله للوالدين والأقربين.

﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعدل بأن لا يزيد على الثلث، وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقاً لازماً على المتقين لله، وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث، ثم نسخ بآية المواريث التي حدد الله فيها نصيب كل وارث.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي: من غير وصية الميت بعدما علمها من وصي أو شاهد، فإن إثم هذا التبديل على الذين بدلوه، لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن الله سميع لوصيتكم وأقوالكم، عليم بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق والعدل أو الجور والحيث، وسيجازيكم على ذلك، وفيه وعيد شديد للمبدلين.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ فمن علم أو ظن من الموصي ميلاً عن الحق على سبيل الخطأ، أو ميلاً عن الحق عمداً.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فأصلح بين الموصي والموصى له لتوافق الشريعة، فلا ذنب عليه بهذا التبديل.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

* ثم يخبر تعالى بما من به على عباده، بأن فرض عليهم الصيام، كما فرض على الأمم السابقة، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكى فيهم جذوة الإيمان.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أوجب الله وفرض عليكم صيام شهر رمضان وهو الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كما فرض على الأمم قبلكم، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارة إلى صالح الخصال. ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لتكونوا من المتقين لله، المجتنبين لمحارمه، فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وقهر النفس، وكسر الشهوات.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: والصيام أيامه معدودات، إشارة إلى تقليل الأيام، وهي أيام شهر رمضان، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم، عبر بأيام - وهي جمع قلة - ووصف معدودات - وهي جمع قلة - تهويناً لأمره على المكلفين؛ لأن القليل يعد عدداً والكثير لا يعد. ثم سهل تسهلاً آخر، فقال:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فمن كان به مرض يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً فله أن يفطر، وعليه صيام عدد من أيام آخر بقدر التي أفطر فيها.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف إذا أفطروا؛ عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فمن زاد على القدر المذكور في الفدية
﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والصوم خير لكم من
الفطر والفدية، إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة.

* ثم بين تعالى وقت الصيام، وأيامه، ومنزلته وفضله، فقال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ
عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ﴾ أي: والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون، هي
شهر رمضان الذي ابتداء فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من
إرشاد وإعجاز، وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل. فلما قرره وبين
فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال:

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر منكم الشهر وكان
صحيحاً مقيماً فليصم نهاره.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ومن كان مريضاً أو مسافراً
فأفطر فعليه صيام أيام آخر، وكرره لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ يريد الله بهذا الترخيص
التيسير عليكم لا التعسير، لتصلوا إلى رضوانه ورحمته.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ ولتكمّلوا عدة الصيام شهراً، بقضاء ما أفطرتُم.
 ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتختموا الصيام
 بتكبير الله وحده على ما أرشدكم إليه من معالم الدين، ولكي تشكروا الله
 على فضله وإحسانه ونعمه.

* ثم بين تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين، ويقضي حوائج السائلين، فقال:
 ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وإذا سألك -يا محمد- عبادي
 عني، فقل لهم: إني قريب منهم، أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم
 حالهم. روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: -يا محمد-
 أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي
 قَرِيبٌ﴾ الآية. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه
 وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

قال ابن القيم: فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، وأقرب ما يكون
 العبد من ربه وهو ساجد.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أُجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان
 وخشوع قلب. فإجابة الدعاء وعد صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة
 الدعوة تخالف قضاء الحاجة، فإجابة الدعوة أن يقول العبد يا رب، فيقول
 الله لبيك عبادي، وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن، وقضاء الحاجة إعطاء

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

المراد، وقد يكون ناجزاً وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون أخيرة له في غيره.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي، ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين، قال شيخ الإسلام في إجابة الدعاء: أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد، وهو مطابقة الخبر، وتارة لكمال الطاعة، وهو موافقة الأمر.

أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَمْشُونَكَ مِنَ الْأَهْلِةِ كُلِّهِمْ مَوْفِيَتٌ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّ وَلَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٩٠﴾

* ثم شرع تعالى في بيان تنمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء، فقال:

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: أباح الله لكم أيها الصائمون جماع نساءكم في ليالي الصوم.
 ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ هن سكن لكم وستر وحفظ، وأنتم كذلك لهن.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ. روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ فقبل توبتكم ومحا ذنوبكم لما فعلتموه قبل النسخ، ووسع لكم في الأمر.

﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا هُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن ما قدر الله لكم من الولد، ولتكن لكم نية في إعفاف أنفسكم وأزواجكم وحصول مقاصد النكاح، وسميت المجامعة: مباشرة؛ لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكلوا واشربوا في ليالي الصوم إلى طلوع الفجر حين يتميز بياض النهار من سواد الليل.

﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ إذا طلع الفجر فأمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس.

وقد جمع الله ﷻ في هذه الآية أصول المفطرات: الأكل والشرب والجماع.

﴿وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: ولا تجامعوا نساءكم ولا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد؛ لأن هذا يفسد الاعتكاف.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بمثل هذا البيان الواضح يبين الله آياته وأحكامه وشرائعه للناس كي يتقوه ويخشوه. فإن العلم الصحيح سبب للتقوى، لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه، والباطل فاتبعه، كان أعظم لجرمه وأشد لإثمه.

* لما بين تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان، عقبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق؛ لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ولا يأخذ بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله، كاليمين الكاذبة، والغصب والسرقة، والرشوة ونحو ذلك. والمراد من الأكل ما يعم الأخذ والاستيلاء، وعبر به؛ لأنه أهم الحوائج، وبه يحصل إتلاف المال غالباً.

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ وتدفعوها إلى الحكام رشوة.

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل، وأنتم تعلمون تحريم ذلك عليكم. * ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة؛ جاءت الآيات الكريمة تبين أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات. قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ يسألك أصحابك - يا محمد - عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ لا يكون على حالة واحدة كالشمس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ الآية.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فقل لهم إنها أوقات وعلامات يعرف بها الناس عباداتهم، ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ظانين أن ذلك قرينة إلى الله. روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقب في ظهره، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، فنزل قوله تعالى:

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجَنَّةُ الثَّانِي

﴿وَلَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ولكن العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله، وادخلوا البيوت كعادة الناس من الأبواب.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واخشوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه في كل أموركم.

* ثم ذكر ﷺ الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة لما قوي المسلمون للقتال، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ﴾ وقاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء ونصرة دين الله من قاتلكم من الكفار الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، وفيه حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٣﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٤﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٥﴾ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكَ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٦﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْلُوا بَآيَاتِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَآخِشُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٧﴾ وَاتَّبِعُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا زُرًّا وَسَكْرَةً حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ رِضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَالٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَسَّ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةً إِذَا جَعَلْتُمْ ذَلِكَ عَشْرَةً كَامِلَةً ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٨﴾

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا تبدؤوا بقتالهم، فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم في حل أو حرم، وفي كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة. ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وشردوهم من أوطانهم، وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وفتنة المؤمن عن دينه أشد من قتله، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلهم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم. ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ﴾ ولا تبدؤوهم بالقتال في الحرم تعظيماً لحرمة حتى يبدؤوا هم بقتالكم فيه.

﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ فإن بدؤوكم بالقتال في الحرم، فلكم حينئذ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمة، والبادي بالشر أظلم، وهذا الحكم جزاء كل من كفر بالله.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن انتهوا عن الشرك والكفر، وأسلموا وكفوا عن قتالكم عند المسجد الحرام فكفوا عنهم، فإن الله يغفر لمن تاب وأتاب.

﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ وقاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم، ولا يبقى شرك على وجه الأرض، ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُذُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإن انتهوا عن قتالكم، فكفوا عن قتلهم، فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فلا تعتدوا عليهم.

* ثم بين تعالى أن قتل المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه، فقال:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي: إذا قاتلوكم أيها المؤمنون في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله، وفي هذا أمر بالعدل حتى في المشركين.

﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: فردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بمثل فعله، ومن جنس عمله.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وراقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد والتوفيق في الدنيا والآخرة.

* ولما كان الجهاد يستلزم المال والعتاد، أمر ﷺ بالإنفاق في سبيله، فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وأنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات، ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك، ويتقوى عليكم الأعداء، وقيل معناه: لا تركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأحسنوا الظن بالله في الإخلاف، واجعلوا عملكم كله خالصاً لوجه الله تعالى حتى يحبكم، وتكونوا من أوليائه المقربين.

* لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلكم بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأما آيات القتال فقد ذكرت عرضاً لبيان حكم هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم رد العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم، قال تعالى:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدوهاما تامين بأركانهما وشروطهما، خالصين لوجه الله تعالى.

وفي قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ تنصيص على أهمية الإخلاص في هاتين العبادتين.
 ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فإذا منعتم عن إتمام الحج أو
 العمرة بمرض أو عدو، وأردتم التحليل؛ فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة،
 أو بقرة، أو شاة، تقرباً إلى الله تعالى.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ولا تتحللوا من
 إحرامكم بالحلقة أو التقصير حتى يصل الهدى المكان الذي يحل ذبحه فيه
 وهو الحرم، أو مكان الإحصار.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
 صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه كقمل أو جراح ونحو ذلك فحلقت في
 الإحرام، فعليه فدية، وهي: إما صيام ثلاثة أيام، أو يتصدق بثلاثة أصع على
 ستة مساكين، أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فإذا
 كنتم في أمن وصحة من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمينين، فمن
 اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء
 وغيرها، فعليه ما تيسر من الهدى، وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فمن لم يجد
 ثمن الهدى إما لعدم المال أو لعدم الحيوان فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة
 حين يحرم بالحج، وسبعة إذا عاد إلى أهله ووطنه.

سورة البقرة

الجزء الثاني

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ۗ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِّينَ ۚ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ

٣١

﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي: عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ذلك التمتع أو الهدي خاص بغير أهل الحرم، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وخافوا الله تعالى بامثال أو امره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن لم يتقه وخالف أمره.

* ثم بين تعالى وقت الحج، فقال:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ۗ﴾

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ أي: وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فمن ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية، فيحرم عليه الجماع ومقدماته القولية

والفعلية، فإنه مقبل على الله، قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام الذي يؤدي إلى الغضب والكرهية، وحيث إنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وما تقدموا لأنفسكم من عمل صالح يجازيكم عليه الله خير الجزاء، وفيه حث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وخذوا لأنفسكم زاداً من الطعام والشراب لسفر الحج، وزاداً من صالح الأعمال لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَأْتُوا لِيُالْبَبِ﴾ أي: خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام. * لما أمر تعالى بالحج وحث عليه، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب والتجارة في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج، إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه، قال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة والتكسب في مواسم الحج، فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك؛ فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ فإذا دفعتم من عرفات بعد غروب الشمس فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية الإرشاد والبيان، وهداية التوفيق والالتزام، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين؛ فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المُنعم في القلب واللسان.

* ثم أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ١٩٩

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم، وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه فلا نخرج منه، فيقفون في

المزدلفة؛ لأنها من الحرم، ثم يفيضون منها وكانوا يسمون «الحُمس» فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها، ثم يفيض منها.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واستغفروا الله عما سلف منكم من المعاصي، لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومضان الإجابة، فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق.

* ثم أمر - جل وعلا - عباده بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها، وأخبر عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فإذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثرُوا من ذكر الله والثناء عليه، وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم، فأمرُوا أن يذكروا الله وحده.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ فمن أصناف الناس من تكون الدنيا همه، فيقول: اللهم اجعل عطائي ومنحتي

في الدنيا خاصة من مال وصحة وأولاد، وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب لرغبتهم عنها وقصر هممهم على الدنيا.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ومن أصناف الناس من يطلب خيري الدنيا والآخرة، وهو المؤمن العاقل فيقول: ربنا آتنا في الدنيا عافية ورزقاً، وعلماً نافعاً وعملاً صالحاً، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، وفي الآخرة الجنة، واصرف عنا عذاب النار، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير وصرفت كل شر، وهو من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ. فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك، والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات، والله سريع الحساب محصى أعمال عباده يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر.

* ثم يأمر ﷺ عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لميزتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها، قال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

سورة البقرة

الجزء الثاني

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

واذكروا الله تسيحاً وتحميداً، وكبروا الله في أعقاب الصلوات، وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

فمن أراد التعجل وخرج من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومن

تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضاً؛ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين.

﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: ما ذكر من الأحكام

لمن أراد أن يتقي الله فيأتي الحج على الوجه الأكمل، والتأخر أفضل لأنه تزود في العبادة، واقتداء بفعل النبي ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وخافوا الله تعالى بامثال أوامره، واجتناب معاصيه؛ واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله - تبارك وتعالى -، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، فقال تعالى:

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾
 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾
 ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾
 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهُهُمْ﴾
 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبِعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحَةِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾
 ﴿فَإِنْ زُلْزِلْتُمْ بَعْدَ مَاجَاءِ نَصْرِكُمْ إِلَى يَنْبَغِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
 ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَأِئِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿٢٠٤﴾ - ﴿٢٠٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ *.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ وبعض الناس من المنافقين يروك كلامه - يا محمد -، ويشير إعجابك بخلاصة لسانه وقوة بيانه، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ولكنه منافق كذاب، روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمر، فأحرق الزرع وقتل الحُمر، فأنزل الله تعالى في الآيات:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ...﴾ الآية.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في هذه الحياة فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر، ويؤكد ما يقول:

﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ويظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، وفي هذا غاية الجرأة على الله.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين، يجادل بالباطل، ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ وإذا انصرف وأدبر عنك - يا محمد - هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك؛ عاث في الأرض فساداً وجد واجتهد في ذلك، وقد نزلت الآية في الأخنس، ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ومن فسادة أنه يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان، ومعناه أن فسادة عام يشمل الحاضر والباد، فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما، والمعاصي وأنواع الفساد تتلف وتنقص وتقل بركتها.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ والله يبغض الفساد، ولا يحب المفسدين، ومن كانت هذه صفته ومن يصدر منه ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ وإذا وعظ ونصح هذا الفاجر المنافق وذُكِّر، وقيل له انزع عن قولك واترك فعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالاثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ فيكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً، فهي دار العاصين والمتكبرين وبئس هذا الفراش والمهاد. وفي الآية التحذير من رد الناصحين لأن الله جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين فمن رد أمراً بتقوى الله ففيه من المنافقين، والواجب على المرء إذا قيل له ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ تعظيماً لتقوى الله.

وبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، أتبعه بذكر الأخيار الأبرار الموفقين، وذكر صفاتهم الحميدة، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله، طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله. روي أن صهيباً الرومي لما أسلم بمكة وأراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أركم رجلاً، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، قالوا: جئنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير، فقال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلهم على ماله بمكة، فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «ربح البيع صهيب ربح البيع صهيب» وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية.

﴿وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ عظيم الرحمة بالعباد، يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات، ولا يعجل العقوبة لمن عصاه.

* لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمر المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وحذر من اتباع خطوات الشيطان، وبين لنا عداوته الشديدة، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يا أيها الذين آمنوا بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً، ادخلوا في الإسلام بكلية في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً، فالإسلام كل لا يتجزأ، ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لا تتبعوا طرق الشيطان وإغوائه في العمل بمعاصي الله فإنه عدو لكم ظاهر العداوة فاحذروه.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ فإن انحرقتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه، حكيم في خلقه وصنعه يضع كل شيء في موضعه المناسب له، وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضي حكمته في تعذيب العصاة والجنة.

* ثم ذكر تعالى شدة عناد الكفار وطغيانهم، فقال تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء المعاندون الساعون في الفساد في الأرض إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق، حيث تنشق السماء وينزل الجبار

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَكُوهَ أَتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٌ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢٠﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٢١﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ ءُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِآيَاتِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٢٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَلَئِنْ وَالْآفَرِيقِينَ وَالنَّبِيُّ وَالْمَسْكِينِ وَأَنْزِلَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

٣٣

﴿٢٢٠﴾ فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ
وَالْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُ كَثَرَتَهُمْ إِلَّا
اللَّهُ وَلَهُمْ زَجَلٌ مِنَ التَّسْبِيحِ، يَقُولُونَ:
سُبْحَانَ ذِي الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ، سُبْحَانَ
ذِي الْعِزَّةِ وَالْجَبْرُوتِ، سُبْحَانَ الْحَيِ
الَّذِي لَا يَمُوتُ، سُبْحَانَ الَّذِي يَمِيتُ
الْخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ، سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ
الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ.

﴿٢٢١﴾ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ﴾ وانتهى أمر الخلائق بالفصل
بينهم، فريق في الجنة وفريق في السعير،
وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً،

والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وأحوالها وشدتها، وبيان أن الحاكم فيها
هو ملك الملوك - جل وعلا - الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو
أحكم الحاكمين.

* ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

﴿٢٢٠﴾ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ سل - يا محمد - يهود المدينة - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه، ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا وأعرضوا عنها وحرفوها عن مواضعها.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها؛ لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقيم بواجبها اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقوقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها فإن النعم تثبت بالشكر وتفر بالكفر.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: زينت وحسنت للذين جحدوا وحدانية الله الدنيا ونعيمها وما فيها من الشهوات والملذات، حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: وهم مع ذلك يهزؤون ويسخرون بالمؤمنين، يرمونهم بقلّة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة. قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلة ومكانة، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة، والكافرون في حضيض الذل والمهانة.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والله يرزق أوليائه رزقاً واسعاً رغداً، لا فناء له ولا انقطاع، أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمناً كان أو كافراً، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشئّة دون أن يكون له مُحاسب ﷻ.

* ثم ذكر ﷺ حال الناس وإرسال الرسل، فقال تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان الناس جماعة واحدة على الإيمان والفترة المستقيمة، فاختلّفوا وتنازعوا.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فبعث الله الأنبياء لهداية الناس، مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية، حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل على محمد ﷺ لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب، حيث إنهم عكسوا الأمر وجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب، فقد كان خلافهم عن بينة وعلم لا عن غفلة وجهل.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً من الكافرين للمؤمنين.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فهدى الله ووفق المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو - جل وعلا - يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، وهدى بفضلته ورحمته وإعانتة ولطفه من شاء من عباده، فهذا فضلته وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

* يخبر تعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء كما فعل بمن قبلهم، فهي سننه الجارية التي لا تتغير، ولا تبدل، وقد ذكر ﷺ هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: بل أظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وامتحان واختبار، والحال لم ينلکم مثل ما نال من سبقکم من النبیین والمؤمنین من المحن الشديدة، ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النکبات والويلات.

﴿مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ أصابهم الفقر والفاقة في معيشتهم، والأمراض والأسقام في أبدانهم.

﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: خَوْفُوا وَأَزْعَجُوا إِزْعَاجًا شَدِيدًا شَبِيهًا لَزُلْزَلَةِ بَأْنَوَاعِ الْمَخَافِ مِنَ التَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ وَالنَّفْيِ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا، حَتَّى وَصَلَ بِهِمُ الْحَالُ أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَيِ مَتَى يَأْتِي نَصْرُ اللَّهِ، وَذَلِكَ اسْتِبْطَاءٌ مِنْهُمْ لِلنَّصْرِ لَتَنَاهِي الشَّدَةِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا غَايَةُ الْغَايَاتِ مِنْ تَصْوِيرِ شَدَةِ الْمُحَنَةِ، فَإِذَا كَانَ الرِّسَالُ - مَعَ عُلُوِّ كَعْبِهِمْ فِي الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ - قَدْ عِيلَ صَبْرُهُمْ وَبَلَّغُوا هَذَا الْمَبْلَغَ مِنَ الضَّجَرِ وَالضِّيقِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الشَّدَةَ بَلَغَتْ مَتْنَهَا، قَالَ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ:

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أَلَا فَأَبْشِرُوا بِالنَّصْرِ فَإِنَّهُ قَدْ حَانَ أَوَانُهُ، فَإِنْ مَعَ الشَّدَةِ فَرَجًا وَمَعَ الضِّيقِ مَخْرَجًا.

* ثم قال تعالى جواباً لسؤال المؤمنين للنبي ﷺ:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ يسألونك - يا محمد - ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة يا رسول الله: ماذا نفق من أموالنا وأين نضعها؟

﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قل لهم - يا محمد - اصرفوها في أي خير يتيسر لكم من أصناف المال الحلال الطيب، واجعلوا

نفقتكم للوالدين، والأقربين من أهلكم وذوي أرحامكم، وقدم الوالدين والأقربين على المسكين وابن السبيل لحق الرحم، ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف، عمم تعالى فقال:

﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار والذين لا كاسب لهم، فهم مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفًا.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزىكم عليه أوفر الجزاء.

* ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام، وهذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر المسلمون وقوا، أمرهم الله بالقتال، فقال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ أي: فرض عليكم أيها المؤمنون جهاد الكفار وهو شاق ومكروه على نفوسكم من جهة الطبع لما

فيه من بذل المال، وخطر هلاك النفس،
والمشقة، ومفارقة الأهل والوطن.

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً،
وفيه كل النفع والخير.

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وقد تحب نفوسكم شيئاً لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً؛ لأن فيه إما الظفر والغنيمة، أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه -

شراً؛ لأن فيه الذل والفقر، وحرمان الأجر. وفي هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم ما لا يعلمه العبد، ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله أعلم بعواقب الأمور منكم، وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم.

* ثم انتقلت الآيات للحديث عن الشهر الحرام وحكم القتال فيه، وحال الكفار، فقال تعالى:

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهِيَ شَرٌّ
لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يَسْأَلُونَكَ حَتَّىٰ يَبْرُكُوا عَنْكَ وَعَنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ
يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَبِمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّا الْبَرِّينَ ؕ آمَنُوا وَآلِ الَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؕ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٣﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْاَحْمَرِ وَالْاَبْيَضِ
قُلْ فِيهِمَا آيَةٌ كِبْرٌ وَمَنْتَفَعٌ لِلنَّاسِ وَاَمَّا هُمَا فَكَبْرٌ
مِنْ نَفْعِهِمَا ؕ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْاَغْفَىٰ ذَٰلِكَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَكُمْ الْاَلْبَتَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩٤﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ يسألك المشركون - يا محمد
- عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه؟

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ قل لهم القتال فيه؛ إثمه كبير ووزره عظيم عند الله
لا استحلاله، وسفك الدماء فيه، ولكن هنا ما هو أعظم وأخطر، وهو:

﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ومنعكم الناس عن الدخول في دين الله بالتعذيب
والتخويف، وصدّهم عن المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد
الحرام وأنتم أهلها وحماة، كل ذلك أعظم وزراً وذنْباً عند الله من القتل، فإذا
استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أن ما ارتكبه في حق النبي
والمؤمنين أعظم وأشنع.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وفتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر
بعد إيمانه، والشرك الذي أنتم فيه أكبر عند الله من القتل.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾
ولا يزالون جاهدين في قتالكم مستمرين في ذلك حتى يعيدوكم إلى الكفر

والضلال إن قدرُوا واستطاعُوا تحقيق ذلك، فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم.

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر، فقد بطل عمله الصالح في الدارين، وذهب ثوابه لعدم وجود شرطه وهو الإسلام.

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان والأموال وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله. وهذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحي العبودية.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله. وفي الآية إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به؛ لا ينبغي أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله، ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة، عم جوده وإحسانه كل حي.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبَيَّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصر الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم، فقال تعالى:

﴿٤١٩﴾، ﴿٤٢٠﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْتَلِكُ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَتْكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ يسألونك - يا محمد - عن حكم الخمر تعاطياً وشرباً وبيعاً وشراءً، والخمر هو: كل مسكر خامر العقل وغطاه مشروباً كان أو مأكولاً. ويسألونك عن حكم القمار؛ وهو أخذ المال أو إعطاؤه بالمقامرة، وهي المغالبات التي فيه عوض من الطرفين.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً، ومنافع مادية ضئيلة من جهة كسب الأموال وغيرها.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وضررهما أعظم من نفعهما إذ يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويتلفان المال، وكان هذا تمهيداً لتحريمها. جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهب للعدل مسلبة للمال، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ ويسألونك عن القدر الذي ينفقونه من أموالهم تبرعاً وصدقة، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو الميسر من أموالهم والفاضل عن الحاجة الذي لا تتعلق به حاجاتهم

وضرورتهم. ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾

أي: كما يبين لكم الأحكام؛ يبين لكم المنافع والمضار، والحلال والحرام.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٦٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿لِتَتَفَكَّرُوا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ الْأُولَى فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ، فَتَعْمَلُوا لِمَا هُوَ أَصْلَحُ، وَالْعَاقِلُ مِنْ أَثَرِ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ

لَهُمْ خَيْرٌ﴾ ويسألونك - يا محمد - عن اليتامي - واليتيم من مات أبوه، ولم يبلغ - كيف يتصرفون في معاشهم وأموالهم، قل لهم: إصلاحكم لهم خير، فافعلوا الأنفع لهم دائماً. عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] انطلق من كان عنده مال يتييم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ...﴾ الآية.

﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب،

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ وَالْمُصْلِحِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَتْكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو حُسْنٍ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا أُمَمَةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَجْنِبَتِكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعِبُدُوا مَوْلَىكُمْ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦٩﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحْضِ قُلْ هُوَ ذِي فَاعْتَرَفُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحْضِ وَلَا تَقْرَبُوا حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١٧٠﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَنْوَاحُكُمْ كَمَا أَنْشَأْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ لِلَّهِ وَالْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَرْضَةً لِأَتَمِّنْكُمْ أَنْ تَبْرُوا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٣﴾

ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع، وعلى الأخ أن يرضى مصلحة أخيه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد ويحرص لهم على الإصلاح، فيجازي كلاً بعمله، وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله وإحسان، وتوسعة على المؤمنين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَتَكُمْ﴾ ولو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة، وشدد عليكم بتحريم المخالطة، ولكنه يسر عليكم الدين وسهله رحمة بكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام، فلا يكلفهم إلا وسعهم وطاقهم.

* ثم حذر تعالى من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي، فقال:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ ولا تتزوجوا -أيها المسلمون- بالمشركات عابدات الأوثان حتى يدخلن في الإسلام.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: اعلّموا أن امرأة

مملوكة لا مال لها ولا حسب مؤمنة بالله خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان.

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا بناتكم من المشركين -وثنيين كانوا، أو أهل كتاب- حتى يؤمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ واعلموا أن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار، وهو الكفر والفسوق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، فحققكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ وهو تعالى يريد بكم الخير، ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم، وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا؛ فيميزوا بين الخير والشر، والخبيث والطيب.

* ثم بين تعالى أحكام الحيض، فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ ويسألونك - يا محمد - عن الحيض، وهو الدم الذي يسيل من النساء جبلةً في أوقات مخصوصة، فقل لهم: إنه شيء مستقذر، يضر من يقربه، وكان اليهود إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...﴾ الآية.

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملامسة فإن ذلك جائز.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ ولا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن. والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهم وعدم مواكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فإذا تطهرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد، وهو القبل لا الدبر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يحب عباده المكثرين الاستغفار والتوبة، ويحب عباده المتنزهين عن الفواحش والأقذار. وقد جمعت الآية الطهارتين الحسية والمعنوية.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم، وفي أرحامهن يتكون الولد، فيخرج منها الأولاد بمشيئة الله، فجامعوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره. قال ابن عباس: اسق نباتك من حيث ينبت. ومعنى ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم قائمة وقاعدة ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث الفرج، وهو رد لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها جاء الولد أحول. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ وقدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَّوهُ﴾ وخافوا الله باجتناّب معاصيه، وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر المؤمنين - يا محمد - بما يفرحهم ويسرهم بالفوز العظيم، ولم يذكر المُبَشِّر به ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجَنَّةُ الثَّانِي

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير من البر وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس. قال ابن عباس: لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وقد نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم ختنه النعمان بن بشير ولا يصلح بينه وبين أخته.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم ومقاصدكم ونياتكم. ثم قال تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لا يعاقبكم الله بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به اليمين.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن يعاقبكم بما قصدتم إليه، وعقدتم القلب عليه من الأيمان إذا حشتم فيها.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ واسع المغفرة، حلیم بمن عصاه حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة بل يحلم عليه ويستره مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٩٤ لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ تَرِيضُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَلَّوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٩٥ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٩٦ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرِيضْنَ بِأَفْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَلَا يُحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَخْلُوقَاتٍ لِلَّهِ فِي أَرْبَاعِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٩٧ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُنَّ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١٩٨ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٩٩

* ثم ذكر عَلَى الأمور المتعلقة بقيام الأسرة وصلاحها، أو تهدد وتهدم وتصدع كيائها، فذكر منها الإيلاء، والطلاق، والخلع، وبين العلاج الناجح والناجع لمثل هذه المشكلات التي تقوض بنيان الأسرة، قال تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِّن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ﴿٢٢٧﴾، ﴿٢٢٨﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِّن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ للذين يحلفون ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن، انتظار أربعة أشهر.

﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء، فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم حيث جعل لإيمانهم كفارة وتحلة. ورحيم بهم أيضاً، حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحموهن.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإن عقدوا عزمهم على الطلاق، باستمرارهم في اليمين، وترك الجماع، فإن الله سميع لأقوالهم عليم بنياتهم، وفيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

* ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ﴿٢٢٨﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ والواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات على سبيل العدة، ليتأكد من فراغ الرحم من الحمل، ولا يجوز لهن تزوج رجل آخر في أثناء هذه العدة حتى تنتهي، ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها، أما غير المدخول بها فلا عدة عليها.

﴿وَلَا يَحِلُّ لِهِنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبل أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة.

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه؛ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظام، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن، وكان الغرض من الرجعة الإصلاح رغبة وألفة ومودة لا الإضرار تعذيباً لهن بتطويل العدة، وهذا في الطلاق الرجعي.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وللنساء على الأزواج من الحق مثل ما للأزواج عليهن، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وللرجال على النساء منزلة زائدة من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف، وهي القوامه والإنفاق، والإمرة ووجوب الطاعة؛ فهي درجة تكليف لا تشریف.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: غالب ينتقم ممن عصاه، له العزة القاهرة والسلطان العظيم، حكيم في أمره وتشريعه يضع كل شيء في موضعه المناسب.

* ثم بين تعالى طريقة الطلاق الشرعية، فقال:

﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان، وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان ألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفر الناس عنها، ويسرحها إلى بيت أهلها بطيب من القول ويدفع إليها متعة وهي هدية أو مال تطيباً لخاطرهن وجبراً لو حشة الفراق على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ﴿مَتَّعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿عَلَى

الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ وكان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: لا أويك ولا أدعك تحلين، قالت: وكيف؟ قال أطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأُنزل الله ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾ الآية.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تضاجروهن وتضيّقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من المهور شيئاً ولو قليلاً.

﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة، وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإن خفتم سوء العشرة بينهما، وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها، أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها، فلا إثم على الزوج في أخذه، ولا على الزوجة في بذله؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها، هي شرائع الله وأحكامه، فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مما لم يشرعه الله.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ومن خالف أحكام الله فقد عرض نفسه لسخط الله، وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ فإن طلق الرجل زوجته المطلقة الثالثة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره زواجاً

سورة البقرة

الجزء الثاني

صحيحاً وجامعاً فيه، ويكون الزواج عن رغبة، لا بنية تحليل المرأة لزوجها الأول، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾

فإن طلقها الزوج الآخر أو مات عنها فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدة بعقد جديد، ومهر جديد، إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور.

* لاتزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضح طريقته وشروطه وآدابه، وتنهى عن الإيذاء والإضرار، قال تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيِيتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيِيتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَالْوَلَدَاتُ لِرَبِّضَعْنِ أُولَاهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدٍ وَلَا مَوْلَاٌ بِوَلَدٍ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضِعُوا الْأَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمُوهُمَا فَإِنْ تَسْرِضِعُوا الْأَوْلَادَكُمْ فَالْوَلَدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعيّاً بواحدة أو اثنتين، وقاربن انقضاء العدة.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى؛ ولتكن نيتكم القيام بحقوقهن على الوجه المستحسن شرعاً وعرفاً، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ واحذروا أن تكون مراجعتهن بقصد وإرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجر لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة يراجعها للإضرار بها ليطول عليها العدة لا للرغبة فيها.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يمسكها للإضرار بها، أو ليكرها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه، لأنه عرضها لعذاب الله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ ولا تهزؤوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ واذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام، وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهرة، واشكروا له سبحانه على هذه النعم الجليلة باللسان ثناءً وحمداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ أي: يرشدكم ويذكركم بكتابه وهدى رسوله إلى سعادتكم في الدارين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وخافوا الله وراقبوه في جميع أموركم، واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيجازيكم على ذلك.

* ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن، وذلك لأن بعض الأولياء يرى أن في تطليق زوجها إياها، وتركها إلى أن تنتهي العدة إذلاً لها ولأهلها، فيمنعها من أن تعود إلى زوجها، فلهذا نهى الله تعالى الأولياء عن هذا الفعل، فقال:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ لَكُمْ لَكُمْ وَأَظْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا طلقتم النساء دون الثلاث وانقضت عدتهن من غير مراجعة لهن.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم، ورضي كل منهما إلى العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله. روي أن معقل بن يسار زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كان، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهوياً وهويته ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أي: يا لئيم، أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها، فأنزل تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ

أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ... الآية، فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك.

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل، ينصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية.

﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ذلكم الاتعاظ بما ذكر؛ وترك العضل، وتمكين الأزواج من نكاح زوجاتهم، والتمسك بأوامر الله خير وأكثر نماء، وأنفع لكم، وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما هو أصلح من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذكرون.

* لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع؛ لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه، وربما أضرعت الطفل أو حرمت الرضاعة انتقاماً من الزوج وإيذاء له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، قال تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ

أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ
تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ^ط
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^ك.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ^ص﴾ والواجب على الأمهات
أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين، وذكر الكمال للتأكيد؛ لأن في لبنها
من المنفعة ما ليس في لبن غيرها من النساء، ولأن إرضاعها إياه يدعو إلى قوة
الشفقة عليه، ومحبته ورحمته، لأنه يبقى في حُضنها، ويلتقم ثديها ويرضعه،
ويجعل لها ذلك متعة وزيادة ألفة ومحبة.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ^ع﴾ إذا شاء الولدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه.
﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ^ف﴾ وعلى الأب نفقة
الوالدات المطلقات وكسوتهن، بما هو متعارف، دون إسراف ولا تقتير
لتقوم بخدمته حق القيام.

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا^ج﴾ أي: تكون النفقة بقدر الطاقة، لأنه تعالى
لا يكلف نفساً إلا وسعها، فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم
يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد.

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ^ه﴾ لا يضر الوالدن بالولد
فيفرطاً في تعهده ويقصر في ما ينبغي له، أو يضار أحدهما الآخر بسبب الولد،
فتفرض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع
رغبتها في إرضاعه ليغذي أحدهما صاحبه.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وعلى الوارث عند موت الوالد مثل ما على والد الصبي قبل موته، من النفقة والكسوة.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فإذا اتفق الوالدان على فطام المولود قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ليصلا إلى ما فيه مصلحة المولود.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير الأم بسبب عجزها، أو إرادتها الزواج على غير وجه المضارة فلا إثم عليكم ولا حرج، شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقت عليه من الأجر بالمعروف وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حذر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وراقبوا الله في جميع أفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم وسيجازيكم على ذلك.

* لما ذكر سبحانه عدّة الطلاق واتصل بذكرها الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدّة الوفاة، لئلا يتوهم أن عدّة الوفاة مثل عدّة الطلاق، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الجزء الثاني

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ أَي: على النساء اللواتي يموتن أزواجهن أن يمكنن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداً على أزواجهن لا يخرجن من منزل الزوجية، ولا يتزين، ولا يتزوجن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما الحامل فعدتها، وضع الحمل.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهن الشرع من الزينة والتعرض للخطاب.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله عليم بجميع أعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها فيجازيكم عليها.

* ثم أعقب ذلك بيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضع خطبة المرأة في حالة العدة، قال تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا

إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ ولا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة، بطريق التلميح لا التصريح. قال ابن عباس: كقول الرجل: وددت أن الله يسر لي امرأة صالحة، وإن النساء لمن حاجتي.

﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج، فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بالنكاح سرّاً إلا بطريق التعريض والتلويح، وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي: فانووا الخير ولا تنووا الشر؛ خوفاً من عقابه ورجاءاً لثوابه.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يمحو ذنب من أناب، ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه، مع قدرته عليه.

* ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس، فقال:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: لا إثم عليكم أيها الأزواج إن طلقتم النساء بعد العقد عليهن، وقبل الجماع أو قبل أن تفرضوا لهن مهراً، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة. روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسه، فنزلت الآية ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ فقال له النبي ﷺ: «متعها ولو بقلنسوتك».

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن، وتطيباً لخاطرهن، وجبراً لو حشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتعاً بالمعروف حقاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله.

* ثم ذكر ﷺ حال المطلقة قبل المساس وحال المهر حينها، فقال:

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ

تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٠٨﴾
 ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ
 مَا فَرَضْتُمْ﴾ وإذا طلقتم النساء بعد العقد عليهن ولم تجامعوهن وقد كنتم
 ذكرتم لهن مهراً معيناً، فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمى
 لهن، لأنه طلاق قبل المسيس.

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ إلا إذا أسقطت
 المطلقة حقها، أو أسقط ولي أمرها الحق إذا كانت صغيرة، وقيل: هو
 الزوج؛ لأنه هو الذي يملك عقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر
 الذي دفعه لها. ثم رغب تعالى في العفو، فقال:

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وتسامحكم أيها الرجال والنساء، أقرب إلى
 خشية الله وطاعته، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدور ونفي المحذور.

﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تنسوا أيها
 المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، وهو إعطاء ما ليس بواجب عليكم
 والتسامح في الحقوق. وقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة
 والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تم لأسباب ضرورية
 قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القربى، إن
 الله بما تعملون بصير، يرغبكم في المعروف، ويحثكم على الفضل.

* ثم توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة
 المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك
 لحكمة بليغة، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان

سورة البقرة

الجزء الثاني

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفَتُ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْتُمْ فَلَاحْتِاجَ عَلَيْكُمْ فِي مَافَعَلْتُمْ أَنْفُسُكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَقْتَ مَنَعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُسْتَقِيمِ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذْتُمْ أَخَاهُمْ رَأَتِ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلُ النَّاسَ لَا يَسْأَلُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَلِيلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَضْطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

الفضل بعد الطلاق، يبين بعد ذلك أمر الصلاة؛ لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها، ولهذا كان ﷺ إذا حزبه هم فزع إلى الصلاة، فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس، قال تعالى:

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿٢٣٨﴾، ﴿٢٣٩﴾

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ واطبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها، وخاصة الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها، وإفراد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفاً لها.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ وداوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع، وقوموا لله مطيعين في صلاتكم خاشعين ذليلين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فإذا كنتم في خوف وفزع من عدو أو غيره، فصلوا ماشين على الأقدام، أو راكبين على الدواب على أي هيئة تستطيعونها

ولو بالإيماء، أو إلى غير جهة القبلة. وأبانت الآية أن الصلاة عبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فإذا زال الخوف وجاء الأمن، فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم، والذكر في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، واشكروا له على ما علمكم من أمور العبادات والأحكام ما لم تكونوا على علم به.

* ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ والأزواج الذين يموتون ويتركون زوجاتهم بعدهم، فعليهم وصية لهن: أن تمتع أزواجهن بعدهم حولاً كاملاً - ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن - جبراً لخاطر الزوجة وبراً بالميت وفي كان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ فإن خرجن من أنفسهن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخطاب.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو سبحانه غالب في ملكه، حكيم في صنعه وأمره ونهيه.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وللمطلقات واجب على الأزواج أن يمتعهن بقدر استطاعتهم من كسوة ونفقة على الوجه المعروف المستحسن شرعاً، جبراً لو حشة الفراق وتطبيراً للخواطر، وهذه المتعة حق لازم على المؤمنين المتقين لله.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة، ويحافظ على الروابط والأواصر، يبين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

* لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل، والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لنشر الدين وحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال، وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله، ويقص تعالى قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، قال تعالى:

﴿٢١٣-٢١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ألم تعلم - يا محمد - أو أيها المخاطب، حال أولئك القوم الذين خرجوا وفروا من أرضهم ومنازلهم وهم أُلُوف مؤلفة.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: خوف الموت من الطاعون أو القتال وفراراً منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم، وكانوا سبعين ألفاً.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فأماتهم الله ثم أحياهم، فماتوا دفعة واحدة عقوبة على فرارهم من قدر الله، وهم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» فعاشوا بعد ذلك دهراً، ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله. قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون الله على نعمه وفضله بل ينكرون ويجحدون، أما الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقاتلوا الكفار لإعلاء دين الله ونصرته، لا لحظوظ النفس وأهوائها، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذا الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً ولا يبعده. ثم يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه في غير موضع، قال تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي: من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه، أن يُضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضْعَافًا كثيرة بحسب حالة المنفق ونيتة، ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر، دفع تعالى هذا الوهم بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ أي: فأنفقوا ولا تبالوا، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، وأن الصدقة لا تنقص المال، وإن نقصته عدداً، فإنها تزيده بركة وحماية، والله هو الرزاق يقتّر على من يشاء، ويوسع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً.

﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿٤٦﴾ أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ
لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا
تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
مَنْ بَعْدَ مُوسَى﴾ ألم يصل إليك - يا

محمد - خبر الأشراف والوجهاء من بني إسرائيل من بعد زمان موسى؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم.

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حين طلبوا من نبيهم شمعون -وهو من نسل هارون- أن يولي عليهم داعياً وقائداً لهم، يجتمعون تحت قيادته ويقاتلون أعداءهم في سبيل الله.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ قال لهم نبيهم: أخشى أن يفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجنبوا عن لقاءه.

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَيْنَا﴾ قالوا مستنكرين توقع نبيهم: أي سبب لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسميت الأولاد؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِئِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ
قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْمُ بَعَثَ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجَتْنَا
مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَ قُلُوبِنَا كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ نَقُولُوا
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُبَوِّتْ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
أَمْطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَرَادَّهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَمِ
وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكًا مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
الْتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
إِن يَئْتِ بِذَٰلِكَ ءَايَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لما فرض عليهم القتال مع القائد والوالي الذي ارتضوه؛ نكل أكثرهم عن الجهاد وفروا لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت. قال القرطبي: وهذا شأن الأمم المتنعة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جنت وانقادت لطبعها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد ونكث العهد عصياناً لأمره تعالى.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي: أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملك عليهم طالوت، ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم.

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ قالوا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا، والحال أننا أولى بالملك منه؛ لأن فينا من هو من أولاد الملوك، وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا؟ وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أجاوبهم
 نبههم على ذلك الاعتراض، فقال: إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح
 منكم، والعمدة في الاختبار، أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة،
 والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء
 ومكابدة الشدائد، ولأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب، وقد خصه الله
 تعالى منهما بحظ وافر؛ قال ابن كثير: ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا
 علم، وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ وهو تعالى الحاكم الذي يفعل ما يشاء،
 يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرث أو مال.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل كثير الكرم، عليم بمن يستحق الملك
 ممن لا يستحقه.

* ولما طلبوا آية على اصطفاء الله لطالوت أجاوبهم إلى ذلك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي: علامة ملكه واصطفائه عليكم.
 ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي: يرد الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو
 صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس
 بني إسرائيل ولا يفرون.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ

الجزء الثاني

سورة البقرة

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا اللَّهَ كَذِبُ إِنَّهُ قَالَ أُولَئِكَ عُلَيْتُ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٥٨ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٥٩ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٦٠ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٦١

٤١

الْمَلَكَةُ أي: في التابوت السكون والطمأنينة والوقار، وفيه أيضاً من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن في نزول التابوت ورجوعه لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر.

*** ولما تملك طالوت بني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، قال تعالى:**

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا اللَّهَ كَذِبُ إِنَّهُ قَالَ أُولَئِكَ عُلَيْتُ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ فلما خرج طالوت بالجيش لقتال العمالقة، وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ قال طالوت لهم: إن الله مختبركم وممتحنكم على الصبر بنهر أماكم تعبرونه وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين لتمييز المؤمن من المنافق.

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: من شرب منه فهو عاص، وليس من أهل ديني وطاعتي، ولا يصحبنا ولا يتبعنا، وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب.

﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ومن لم يشرب منه ولم يذقه، فإنه من جندي الذين يقاتلون معي؛ لأنه مطيع لأمرى وصالح للجهاد.

﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ لكن من اغترف قليلاً من الماء ليل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك، فإذا لهم برشفة من الماء تذهب العطش.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فلما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش، شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش، كانوا بعدد أهل بدر، ثلاثمائة وبضعة عشر، كما في صحيح البخاري وغيره، وقيل: شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فلما اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم اعتراهم الخوف، فكان حال فريق منهم أن:

﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ﴾ فأجاب الذين يعتقدون بقاء الله، وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت، وقالوا يذكرون إخوانهم بالله وقدرته، قائلين:

﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة غلبت جماعة كثيرة بإرادة الله ومشيئته، فالأمر لله تعالى فليس النصر بكثرة العدد، وإنما النصر من عند الله.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: معهم بالحفظ والرعاية والتأييد، ومن كان معه فهو منصور بحول الله وقوته.

* وحين تقابلت الصفوف؛ كانت الحال كما قال تعالى:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: ظهر طالوت وجنوده المؤمنين في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار، جيش جالوت المدرب على الحروب.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر، فقالوا أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك.

﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبتنا في ميدان الحرب وقوَّ قلوبنا، ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية.

﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وانصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده، وهي الدعوة الثالثة.

قال تعالى إخباراً عنهم:

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ أي: غلبوا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابته لدعائهم، وانكسر عدوهم رغم كثرته، وقتل داود -وكان في جيش المؤمنين مع طالوت- رأس الطغيان جالوت، وقتله بيده لشجاعته وقوته وصبره، واندحر جيشه.

﴿وَعَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وأعطى الله تعالى داود الملك والنبوة، وعلمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه، قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ولولا أن يدفع الله شر الأشرار بجهد الأخيار لفسدت الحياة، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الجزء الثالث

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ
 وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ
 وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن
 بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
 فَيَوْمَئِذٍ مِّنْ أَمَنٍ وَهُمْ مِّنْ كُفْرٍ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا
 وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُوا
 مِمَّا زَكَّيْنَاكَ مِن قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا
 شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
 مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا
 بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ
 الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
 بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٤٢

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
 الْعَالَمِينَ﴾ أي: ذو تفضل وإنعام
 على البشر حيث لم يمكن للشر
 من الاستعلاء.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ﴾ أي: ما قصصنا عليك - يا
 محمد - من الأمور الغريبة والقصص
 العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل
 هي من آيات الله وأخباره المغيبة
 التي أوحاها إليك بالحق بواسطة
 جبريل الأمين.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنك - يا محمد - لمن جملة الرسل الذين
 أرسلهم الله لتبليغ دعوته.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل،
 وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة، خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين،
 وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أن المرسلين
 ليسوا في درجة واحدة، بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين
 البشر، قال تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ
 بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنۢ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنۢ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْۤا اَنۡفِقُوْۤا مِمَّا رَزَقْنٰكُمْ مِّنۢ قَبْلِ اَنْ يَّآتِيَ يَوْمٌ لَاۡ بَيْعَ فِيْهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَاَلۡكٰفِرُوْنَ هُمُ الظّٰلِمُوْنَ .

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم - يا محمد - هم رسل الله حقًا، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية بحسب ما منَّ الله عليهم.

﴿مِّنْهُمْ مَّنۢ كَلَّمَ اَللّٰهُ﴾ منهم من خصه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله ﷻ على الوجه اللائق بجلاله.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰتٍ﴾ ومنهم من خصه الله بالمرتبة الرفيعة السامية، كخاتم المرسلين محمد ﷺ بعموم رسالته، وختم النبوة به، وتفضيل أمته على جميع الأمم، فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿وَعَاتَيْنَا عِيسٰى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات؛ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات كعيسى ابن مريم عليه السلام الذي قويناه بجبريل الأمين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاؤوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق.

﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين، وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان، ومنهم من حاد وكفر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلُوْا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ﴾ كرهه للتأكيد، أي: لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة، لا يتنازعون، ولا يقتتلون، ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد. ثم انتقلت الآيات إلى حث المؤمنين:

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اَنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقْنٰكُمْ﴾ أي: أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات.

﴿مِّنْ قَبْلِ اَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَاۤ بَيْعٌ فِيْهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم، إلا أن يأذن الله رب العالمين.

﴿وَالْكَافِرُوْنَ هُمُ الظّٰلِمُوْنَ﴾ ولا أحد أظلم ممن وافي الله يومئذ كافراً. والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب لأنه وضع العبادة في غير موضعها.

قال عطاء: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُوْنَ هُمُ الظّٰلِمُوْنَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

* ثم تلت تلك الآيات آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله، ولها شأن عظيم كما وردت بذلك الأحاديث، قال تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي: هو الله ﷻ لا معبود بحق إلا هو، الواحد الأحد الفرد الصمد. ذو الحياة الكاملة، المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير. و﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لا يأخذه نعاس ولا نوم ولا غفلة، ولا ذهول عن خلفه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبده، وتحت قهره وسلطانه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لا أحد يستطيع ولا يتجاسر أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى، قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا، وما خلفهم؛ أي أمامهم، وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ولا يعلمون شيئاً من علمه إلا بما أعلمهم إياه على ألسنة الرسل، وهذا دليل على قدرته وعظمته وعجزهم وضعفهم.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أحاط كرسیه بالسموات والأرض لبسطته وسعته. والكرسي: هو موضع قدمي الرب ﷻ ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، والسموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة. قال ابن كثير: والصحيح أن الكرسي غير العرش، وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمته وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش.

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ولا يثقله ولا يعجزه ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ومن فيهما بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو العلي بذاته وصفاته فوق خلقه، ذو العظمة والجلال. وهذه الآية أعظم آية في القرآن وتسمى «آية الكرسي» وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا أكثر الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً، وعند نومه، وأدبار الصلوات المكتوبات، وفي الحديث: «من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح» [رواه البخاري]. وقد تضمنت الآية خمسة من أسماء الله: الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم.

* ثم ذكر ﷺ أن هذا الدين بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، قال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي: لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال. كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من التجار يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما فنزلت

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الآية.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله، فقد تمسك من الدين بأقوى سبب وثبت واستقام على الطريقة المثلى. والعروة: طرف الجبل إذا ربط على هيئة الحلقة، يمسك بها من ينزل في بئر أو يصعد منها، والمراد بها: هنا وسيلة النجاة. والوثقى: شديدة الربط لا أوثق منها.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها ولا زوال فلا يهلك المتعلق بها، بل يصل بتمسكه بها إلى الجنة، ولا ينقطع عن الجنة إلا من لم يتمسك بها. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم.

* ثم يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، قال تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: الله ناصر المؤمنين ومعينهم وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة، وجمعت لاختلافها إلى نور

الإيمان والهداية ووحد الإيمان، وسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه، وسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وأما الكافرون فأولياؤهم وأئمتهم الشياطين وحزبه، يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكتون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً.

* لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان

سورة البقرة

الجزء الثالث

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِيهٖ
أَنَآءَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُبْحِى
وَيُمْيْتُ قَالَ إِنَا اٰخِىْ ؕ وَلَمِيتْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنِ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢٨﴾ أَوْ كَالَّذِى
مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى
هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ
وَقَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ
لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ
وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَتُنْظَرَ إِلَى
أَلْعَاطِمْ كَيْفَ تُنَبِّشُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمَامُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢٩﴾

في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر هاهنا قصصاً ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم، والثانية والثالثة في إثبات الحشر، والبعث بعد الفناء، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر، المجادل في قدرة الله وجرأته وعناده، أي: ألم ينته علمك - يا محمد - إلى ذلك المارد، وهو النمروذ ابن كنعان الذي جادل إبراهيم وحاجه في وجود الله؟ ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: لأن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان، فتجبر وسأل إبراهيم عليه السلام من ربك؟ فرد عليه:

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله، إن ربي هو الذي خلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده رب العالمين المتفرد بالإيجاد والإماتة.

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال ذلك الطاغية: وأنا أيضاً أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قتله، واستبقي من أردت استبقاءه، ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أن يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، روي أنه دعا رجلين فأمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فقال: هذا قتلته، وأمر بإطلاق الآخر، وقال: هذا أحييته، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل، عدل إلى دليل آخر أجدى وأوقع وأشد إفحاماً.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾

قال إبراهيم عليه السلام: إذا كنت تدعي الألوهية وأنت تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين ﷻ، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيتها، فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة، وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من الغرب إلى الشرق معلومة لهم.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: سكت وتحير ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوراً دهشاً لا يستطيع الجواب.

قال تعالى: ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يقل الكافر ليتبين أن خذلانه في الإجابة كان بسبب كفره.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين.

* ثم ضرب تعالى دليلاً آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير، والإماتة، والإحياء، وهذه هي القصة الثانية، وهي مثل لمن أراد الله هدايته، فقال:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ألم يتته إلى علمك - يا محمد - كذلك مثل الذي مرَّ على قرية باد أهلها، وفني سكانها، وسقطت جدرانها على سقوفها، وهي قرية بيت المقدس لما خر بها بختنصر.

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: وقف عليها ذلك الرجل الصالح واسمه عزيز على الرأي الأشهر متعجباً، وقال: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب.

﴿فَأَمَّا تِلْكَ الْمَائَةُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ فأما ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة، ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: فبعث الله من يسأله فقال: كم مكثت في المكان ميتاً؟ قال: يوماً، ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب، فقال: يوماً أو بعض يوم، أي أقل من يوم، فخاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة، وإن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتين وعصير فوجدها على حالها لم تفسد، وفيه أكبر دليل على قدرته تعالى حيث أبقاها وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أمره أن ينظر إلى حماره، وكان قد مات وتفرقت عظامه ونخرت، وصار هيكلًا من البلى، تشاهد كيف نحياه لك وأنت تنظر.

﴿وَلَنَجْْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه، ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا على البعث بعد الموت.

سورة البقرة

الجزء الثالث

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ
تُومِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾
مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ
يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَمْ أَنْفَقُوا مِمَّا وَلَا
أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ
يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا يَبْطِلُوا صِدْقَتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْغِي مَالَهُ
رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ
عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾

٤٤

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا
ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ وتأمل في عظام
حمارك النخرة كيف تُركب بعضها فوق
بعض، وأنت تنظر، ثم نكسوها لحماً
بقدرتنا، ثم نعيد فيها الحياة، وجعل
اللحم كاللباس مجازاً.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلما رأى الآيات
الباهرات عياناً كما وصفها الله تعالى،
قال: أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله
على كل شيء قدير، وصار آية للناس.

* ثم ذكر تعالى سؤال إبراهيم عليه السلام حين أحب أن يترقى من علم
اليقين بذلك، إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة، وهذه القصة الثالثة،
وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ
تُومِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ واذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي: أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء؟ حتى تسألني أن تنظر إليه.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي﴾ قال إبراهيم عليه السلام: بلى آمنت، ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب، وزيادة يقين، برؤية ذلك. أراد أن يصير له بعد علم اليقين عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة وهذا يجتمع دليل العيان إلى دليل الإيمان، ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس من حب الاطمئنان برؤية ما أخبرت عنه.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فقال الله له: خذ أربعة من الطير فضمهن إليك، ثم اقطعهن قطعاً، ثم اخلط بعضهن ببعض، حتى يصبحن كتلة واحدة. ثم فرّق أجزاءهن على رؤوس الجبال.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: نادهن يأتينك مسرعات قد عادت إليهن الحياة، فنادى إبراهيم عليه السلام، فإذا كل جزء يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مسرعة، قال مجاهد: كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبهن ثم فعل بهن ما فعل، ثم دعاهن فأتين مسرعات. عن ابن عباس قال: وضعهن

على سبعة أجبل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة، والريشة تلقى الريشة، حتى صرن أحياء.

﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

قال البغوي: الحكمة في المشي دون الطيران أبعد من الشبهة؛ لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير، وأن أرجلها غير سليمة.

قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها، ثم أمسك برؤوسها عنده وجزأها أجزاء على الجبال، ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، حتى عادت طيراً كما كانت، وأتينه يمشين سعياً ليكون له في الرؤية لما سأل.

﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات لا يمتنع عليه ما يريد، حكيم في تدبيره وصنعه وشرعه وقدره.

* ثم ذكر ﷺ مثلاً ضرب به لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سُنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سُنَابِلَ﴾
مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم؛ في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وفي سبيله وابتغاء مرضاته كمثال حبة زرعت في أرض طيبة، فإذا بها قد أخرجت ساقاً تشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبل، وفي كل سنبل مائة حبة، وكذلك

وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها، إلى سبعمائه ضعف، أي: مثل نفقتهم كمثل حبه زرعت فأنبئت سبع سنابل.

﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ في كل سنبله منها تحتوي على مائة حبه، فتكون الحبه قد أغلت سبعمائه حبه، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره، فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، ولهذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يضاعف الأجر فيعطيهما أجرهم بغير حساب لمن أراد، وذلك التضعيف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، وابتغائه بنفقته وجه الله، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفق وزكائه، وفضل الله واسع وجوده لا يحد.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل والعطاء والجود، يُعطي عن سعة وغنى، عليم بنية المنفق وبمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها. نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف وأربعة آلاف وقال: أقرضتها

ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»، فنزلت فيه الآية:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية.

* ثم مدح -تبارك وتعالى- الذين ينفقون في سبيله، وذكر ما يعرض لهذه الصدقات ويبطلها من المن والأذى والرياء، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله ومرضاته، لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمن على من أحسنوا إليه، بقول أو فعل يشعره بالفضل عليه، أو يعد نعمه عليه فيكدرها عليه. والمن من الكبائر، ولا بالأذى؛ وهو السباب والتطاول.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى﴾.

قال زيد بن أسلم: «حظّر الله على عباده المن بالصنعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير». وقدم الليل على النهار، والسر على العلانية؛ لأنها أبعد عن الرياء.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فيه تأكيد وتشريف.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا يعتريهم فزع يوم القيامة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم من زهرة الدنيا. ويفيد دوام انتفاء الحزن عنهم. ثم ذكر من آداب الصدقة، فقال:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي: رد السائل بالتي هي أحسن، والصفح عن إلحاحه والعفو عنه، وستر خلته والتأنيس والترجية بما عند الله والرد الجميل خير عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه، أو تعييره بذل السؤال.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي: مستغن عن الخلق وصدقاتهم، لا حاجة له إلى منفق يمن ويؤذي، حلیم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره مع قدرته عليه. ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها لطفاً بالمنفقين ورحمة بهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أي: لا تحبطوا أجرة صدقاتكم بالمن والأذى. والمن: هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها. والأذى: السب والتطاول والتشكي، وقدم المن على الأذى لكثرة وقوعه.

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ فهذا شبيه بالذي يخرج المال ليراه الناس، فيثنوا عليه ويمدحوه.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْجَنَّةُ الثَّالِثَةُ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَتْ أَكْطُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٦﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِّنْ تَحِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ
ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَتْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣٧﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَبِيتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ
وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي
خَبِيرٌ ﴿٢٣٨﴾ السَّيِّطُ بَلَّغُوا الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدْكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
﴿٢٣٩﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٢٤٠﴾

٤٥

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولا
يصدق ببقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً،
وهذا لا شك أن عمله من أصله مردود.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾
فمثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر
الأملس الذي عليه شيء من التراب،
يظنه الظان أرضاً طيبة منبثة.

﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَّهُ صَلْدًا﴾
أي: فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه
التراب، فيبقى صلدًا أملس ليس عليه
شيء من الغبار أصلاً، كذلك هذا
المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة؛ فإذا

كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يجدون له ثواباً في الآخرة،
فلا ينتفع بشيء منها أصلاً.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.
* ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، على
وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل له صدقاتهم، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ
كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ينفقونها طلباً لمرضاة الله، وتصديقاً بقلائه، وتحقيقاً للثواب عليه.

﴿وَتَثْبِيثًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرة له النفس، سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان؛ إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهو لاء سلموا من هاتين الآفتين، فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ كمثلي بستان كثير الشجر غزير الظلال، بمكان مرتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً، وخصت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها وللطافة هوائها.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَمَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أصابها مطر غزير، فأخرجت ثمارها جنة مضاعفة، ضعفي ثمر غيرها من الأرض.

﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف، أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها، فهي تنتج على كل حال، وكذلك نفقات المخلصين تُقبل عند الله وتضاعف، كشرت أم قلت، وهكذا المؤمن إذا أكثر الله له الخير أكثر من الصدقة ابتغاء وجه الله، وإذا أصابه من الخير قليل فإنه يبذل من صدقته ولا يقطعها.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد فهو المطلع على السرائر، البصير بالظواهر والبواطن، يثيب كلاً بحسب إخلاصه. * ثم ضرب ﷻ مثلاً لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالاً تفسده، قال تعالى:

﴿٦٦﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۚ

﴿أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أيحب الواحد منكم ويرغب أن يكون له بستان فيه أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منفعتهما؛ لكونهما غذاء وقوتاً، وفاكهة وحلوى.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: وفي تلك الجنة تمر الأنهار العذبة من تحت أشجارها، وينبت له فيها جميع الثمار، ومن كل زوج بهيج، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته.

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ وأصابته الشيخوخة وبلغ الكبر، فضعف عن الكسب والعمل ولا يستطيع أن يغرس مثل هذا الغرس والكبر مظنة شدة الحاجة، لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب، وله أولاد صغار ضعاف عجزوا لا يقدرّون على الكسب وهم في حاجة إلى هذا البستان، فبينما هو كذلك.

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي: وهم في تلك الحالة هبت على تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم، ولهذا أمر الله بالتفكير وحث عليه، فقال:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم، لكي تفكروا وتدبروا بما فيها من العبر والعظات.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة والحث عليها من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه، ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار، فكما من عليكم بتسهيل تحصيله، فأنفقوا منه شكراً لله وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ ولا تقصدوا الرديء منه لتعطوه الفقراء، نهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء وكما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ ولو أعطيتموه لم تأخذوه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر، فكيف تؤدون منه حق الله.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: إنه سبحانه غني عن صدقاتكم، حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء.

ثم حذر تعالى من وسوسة الشيطان في هذا الموطن، فقال:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا البخل واختيار الرديء للصدقة من الشيطان الذي يخوفكم الفقر وقلة ذات اليد إن تصدقتم، ويغريكم بالبخل، ومنع الزكاة، ويأمركم بالمعاصي، ومخالفة الله تعالى. والفاحش عند العرب: البخل لشدة قبح البخل عندهم.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرة للذنوب، وخلفاً لما أنفقتموه، وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، ومن الخلف العاجل: انشراح الصدر، ونعيم القلب والروح، وحصول ثوابها وتوفيقها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل وعظيم العطاء، عليم بما صدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده، ومن أنعم عليه بذلك فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

سورة البقرة

الجزء الثالث

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۖ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا
الْصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۚ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
أَلْفَوْهُ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ
عَلَيْكَ هُدُودُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا
أَبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُمُونَ ۖ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَّا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ
بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۖ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِأَيْلٍ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۖ ﴿٢٧٤﴾

٤٦

* لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته، وترغب في إخفاء الصدقات؛ لأنها أبعد عن الرياء، قال تعالى:

﴿٢٧٠﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۚ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ ﴿٢٧١﴾

﴿٢٧٢﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وما بذلتم أيها المؤمنون من مال، أو نذرتهم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه، وهو المطلع على نياتكم وسوف يجازيكم على ذلك، وفيه معنى الوعد والوعيد.

﴿٢٧٣﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله، أو قصد بذلك رضى المخلوقين، ما لهم من معين أو نصير ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله.

﴿٢٧٤﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ * إن تظهروا صدقاتكم وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله، فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه لحصول المقصود بها.

﴿وَأِنْ تَخْضَوْهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وإن تسروها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويزيل بجميل أعمالكم سيئ آثامكم، ففي الصدقة - مع الإخلاص - محو لذنوبكم ودفع العقاب عنكم.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: هو سبحانه مطلع على أعمالكم من خير وشر، قليل وكثير، يعلم خفاياكم، فيجازيكم عليها. وفي الآية ترغيب في أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء، فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار.

﴿٢٧٢﴾ - ﴿٢٧٤﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ليس عليك - يا محمد - أن تهدي الناس، فالهداية بيد الله ﷻ، ولست بمؤاخذ بجريرة من

لم يهتد، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام. عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الزمة، فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ﴾ مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.
﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ وما تبذلوا من مال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم؛ لأن ثوابه لكم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرض دنيوي، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق به سبحانه.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وما تنفقوا من مال -مخلصين لله- فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يستطيعون بسبب انشغالهم بشأن الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب.

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم عن السؤال، وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح. وقيل معناه: إن سألوا سألوا بلطف ولم يلحوا.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء. ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فقال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلهم ثواب ما أنفقوا، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

* لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وحض على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك من حالة الظالمين المسيئين إلى المحتاجين غاية الإساءة، وهو: أكل الربا وأموال الناس بالباطل، وأنواع الشبهات، ويذكر ﷺ حال أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة تقلبهم، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الجزء الثالث

سورة البقرة

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ أَي: الذين يتعاملون بالربا لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع، ولا يستطيع أن يمشي سوياً، يقومون مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ذلك العقاب والتخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرمه الله، وقولهم: الربا كالبيع، فلماذا يكون حراماً؟ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده. قال تعالى ردّاً عليهم ومكذباً لهم.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي: أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع وعموم المصالح، وحرم الربا لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، لأن فيه زيادة واستغلالاً وضياعاً وهلاكاً.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ تذكير وتخويف، أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به، فله ما مضى قبل التحريم، ولا إثم عليه جزاء لقبوله للنصيحة والموعظة.

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وأمره موكل إلى الله فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاد إلى التعامل بالربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك واستحله بعد تحريم الله له فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، وهو من المخلدين في نار جهنم؛ لأن من أحل ما حرم الله ﷻ فهو كافر.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ يذهب ريع الربا ويمحو خيره ويذهب بركته، وإن كان زيادة في الظاهر، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه، ويكثر تعالى الصدقات وينميها ويبارك لهم في أموالهم وإن كانت نقصاناً في الشاهد. والجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم؛ ربه أكرم منه ﷻ.

ولم يرد في القرآن كله لفظ:

﴿يَمْحَقُ﴾ إلا في هذا الموضع وفي قوله: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وهو سبحانه لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار.

ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾ أي: صدقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفرع الأكبر، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

* يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقرههم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨-٢٨١) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما بقي لكم من رؤوس أموالكم التي كانت لكم عند الناس قبل تحريم الربا إن كنتم مؤمنين بالله قولاً وعملاً. كان لبني عمرو من ثقيف ديون ربا على بني المغيرة فلما حل الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ... الآية، فقالت ثقيف: لا يد لنا -أي لا طاقة لنا- بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رؤوس أموالهم فقط، قال ابن تيمية: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: وإن لم ترتدعوا عما نهاكم الله عنه من التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، قال ابن عباس: يقال لأكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب. وقد دلت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر.

﴿وَإِنْ تُبْتِغُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وإن رجعتم إلى ربكم وتركتم أكل الربا؛ فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان، لا تظلمون أحداً بأخذ ما زاد على رؤوس أموالكم، ولا يظلمكم أحد بنقص ما أقرضتم.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وإذا كان المدين معسراً لا يجد وفاء، فعليكم أن تمهلوه إلى أن ييسر الله له رزقاً فيدفع إليكم مالكم، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي وإما أن تُربي.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وإن تجاوزتم عما لكم عنده كاملاً أو بعضه فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم.

ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، فقال:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ واحذروا أيها الناس يوماً سترجعون فيه إلى ربكم، وهو يوم القيامة، تعرضون على الله ليحاسبكم، فيجازي كل واحد منكم بما عمل من خير أو شر دون أن يناله ظلم. عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن

سورة البقرة

الجزء الثالث

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾

وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً.

قال ابن جني: «كان الله تعالى رفيقاً بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة، إذ هي مما تنفطر له القلوب».

* لما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة، جاءت أطول آية في القرآن العظيم، وهي آية الدين، ذكر فيها تعالى القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية

المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِيحْرَةٍ حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا بَضَآءَ كَاتِبٍ وَلَا شَهِيدٍ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ دُسُوفٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٠﴾

وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ وَأَدِّئُوا أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: إذا تعاملتم بدين إلى وقت معلوم فاكتبوه، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدراتها وميقاتها حفاظاً على المال ودفعاً للنزاع.

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وليكتب لكم كاتب عادل مأمون، لا يجوز على أحد الطرفين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ولا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، وليقم بالكتابة بالعدل إحساناً إلى عباد الله المحتاجين للكتابة، كما أحسن الله إليه بتعليمه.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي: ليقم المدين بإملاء ما عليه من الدين، ولا يكتب الكاتب إلا ما أملاه من عليه الحق على الكاتب.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أمر أن يبين جميع الحق الذي عليه وليخش الله رب العالمين، ولا ينقص من دينه شيئاً.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ فإن كان المدين ناقص العقل مبذراً، أو كان صبيهاً أو شيخاً هرمًا.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرس أو عجمة، فليتول الإملاء عنه قيِّمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ واطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من أهل العدالة زيادة في التوثقة، وشهادة الكفار ذكوراً أو إناثاً غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم.

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي: تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى، وهذا علة لوجوب الاثنين لنقص الضبط فيهن. ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك.

﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ ولا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده. ﴿ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: ما أمرناكم به من كتابة الدين، أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لئلا تنسى، وأقرب أن لا تشكوا في قدر الدين والأجل.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كان البيع حاضراً، يبدأ بيد، والتمن مقبوضاً لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة.

سورة البقرة

الجزء الثالث

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً ۖ فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّاهُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣﴾
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾
 وَمِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٢٨٥﴾
 لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا لَهَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٢٨٦﴾

٤٩

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور.

﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وأشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين؛ لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ ولا يضر صاحب الحق، الكاتب والشهود بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك.

﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾

وإن فعلتم ما نهيتم عنه من الحرمان فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ﴾ وخافوا الله وراقبوه، يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

* ثم ذكر تعالى من أنواع التجارات التي تقع حال السفر، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً ۖ فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّاهُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ وإن كنتم مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى، ولم تجدوا من يكتب لكم، فادفعوا إلى صاحب الحق شيئاً يكون عنده يحصل له التوثيق، ويكون ضماناً لحقه إلى أن يرد المدين ما عليه من دين.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَلَّتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فإن أمن الدائن المدين، فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤمن الدين الذي عليه، وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة، ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ هذا خطاب للشهود، أي: إذا دعيتم إلى أداء شهادة؛ لأن الحق مبني عليها لا يثبت من دونها، فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً، وخص القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد وأفعالهم.

ذكر الله في أواخر السورة أحكام الأموال وهي ثلاثة أصناف: عدل، وفضل، وظلم، فالعدل: البيع، والظلم: الربا، والفضل: الصدقة. فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم الرايين وبين عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى. * ثم ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات العظيمة؛ لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد

والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين وغيرها، فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد، قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض ملكاً وتديراً وإحاطة، المطلع على ما فيهن، لا يخفى عليه شيء، لجميع من خلقهم ورزقهم، ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء، أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه، وهذا متضمن لكمال علمه ﷻ بسرائر عبادِه وظواهرهم، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه، فعلمه عام وملكه عام.

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله، فقالوا: كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام، والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها، فقال ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم:

﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فلما قرأه القوم وجرت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى: ﴿عَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ونسخها تعالى فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ الآية.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو لمن أتى بأسباب المغفرة يعفو عمن يشاء، ويعاقب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره، فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القادر على كل شيء لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشئته وتقديره وجزائه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، وقد تضمن ذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل، فيغفر لمن يشاء فضلاً، ويعذب من يشاء عدلاً، وقد أكرم الله المسلمين بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس وخطرات القلب.

* لما ذكر تعالى في هذه السورة أحكاماً كثيرة، ختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جل وعلا برفع الأغلال والآصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين وقد ختمت هذه السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد، قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى. قال تعالى:

﴿عَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ عَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *.

﴿عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: صدق وأيقن رسول الله محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي، والمؤمنون كذلك أيقنوا وعملوا بالقرآن العظيم.

﴿كُلٌّ عَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ الجميع من النبي والأتباع صدق بوحدانية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أي: لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفریق.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وقال الرسول والمؤمنون أجبننا دعوتك، وأطعنا أمرك، فنسألك مغفرة لما اقترفناه من الذنوب، وما صدر منا من تقصير، وإليك وحدك المرجع والمآب لجميع الخلائق، فتجزئهم بما عملوا من خير وشر. وفي تقديم الآية السمع والطاعة على طلب الغفران.

ثم يخبر تعالى عن بيان مثته على هذه الأمة، فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته لأن دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب من عباده ما لا يطيقونه، فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية

عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعض كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل سعيه. وجاءت العبارة بـ

﴿لَهَا﴾ في الحسنات، لأنها مما ينتفع العبد به، وجاءت بـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في السيئات؛ لأنها مما يضر العبد. ثم أرشدكم تعالى إلى دعاء عظيم:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: قولوا ذلك في دعائكم والمعنى: لا تعذبنا ولا تعاقبنا إن نسينا شيئاً مما افترضته علينا، أو أخطأنا في فعل شيء نهيتنا عن فعله، لأن الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان. والفرق بين النسيان والخطأ، أن النسيان: ذهول القلب عما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ربنا لا تكلفنا بالتكاليف والأعمال الشاقة التي نعجز عنها، كما كلفت بها من قبلنا من الأمم، كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة، وقد فعل تعالى فإنه سبحانه خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦٓ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا﴾

ربنا ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء والمصائب، وامح عنا ذنوبنا، واستر عيوبنا، فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور. وقيل: العفو: عن التفريط في الطاعات، والاستغفار عن فعل المحرمات، والرحمة: فيما يستقبله المرء من زمنه.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أنت ربنا وناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ.

روي أنه ﷺ لما دعا بهذا الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلت. وهم بهذه الأربعة التي سألوا ربهم تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها.

وقد ورد في فضل أواخر سورة البقرة ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

قال ابن القيم:

«خواتيم سورة البقرة فيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتاباً مفرداً».

تم تفسير سورة البقرة

والحمد لله

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

* سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين مهمين من أركان الدين هما: الأول: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله - جل وعلا - . والثاني: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله. أما الأول: فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحداية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد ﷺ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم اليهود وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم النصارى الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى -عليهما السلام-، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتفريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب، أما الركن الثاني: فقد تناولت الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهزموا في أحد بسبب مخالفتهم لأمر

الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَٰبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وسورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم.

وقد ورد في فضل سورة آل عمران، ما رواه النواس بن سمعان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران» [رواه مسلم].

سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى -عليهما السلام-.

نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم عبدالمسيح أميرهم والأیهم مشيرهم وأبو حارثة بن علقمة حبرهم، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك

سورة آل عمران

الجزء الثالث



الثلاثة معه فقالوا تارة عيسى هو الله؛ لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو ابن الله إذ لم يكن له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال: «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟» قالوا: لا،

قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟»، فسكتوا وأبوا إلا الجحود؛ فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثمانين آية، قال تعالى:

﴿١-٥﴾ أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * .

﴿الْم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الله، لا رب سواه ولا معبود بحق غيره.

﴿الْحَيَّ﴾ أي: الباقي الدائم الذي لا يموت، المتصف بالحياة الكاملة كما يليق بجلاله.

﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، ومن قيامه بعباده أن:

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ نزل عليك - يا محمد - القرآن الذي لا شك فيه ولا ريب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها، بالحجج والبراهين القاطعة.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما قبله من الكتب المنزلة، المطابقة لما جاء به القرآن وهي شاهدة له بالصدق.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ وأنزل الكتابين العظيمين: التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام من قبل نزول القرآن، أنزل هذه الكتب هدى للناس من الضلال.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: جنس الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان القرآن، وكرره تعظيماً لشأنه.

وإنما قال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ لأنهما أنزلا جملة واحدة وقال في القرآن ﴿نَزَّلَ﴾ مفصلاً، والتنزيل للتكثير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل بعد ما بينها ووضحها وأزاح العلل.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ عظيم أليم في الآخرة لا يقدر قدره، ولا يدرك وصفه.
﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ غالب على أمره لا يُغلب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، منتقم ممن عصاه وجحد حججه وأدلته، وتفرد بالألوهية.

* ثم ذكر ﷺ إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إن الله محيط علمه بالخلائق، لا يغيب ولا يعزب عن علمه أمر من الأمور في الأرض ولا في السماء، قل أو كثر، فهو مطلع على كل ما في الكون، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: هو وحده ﷻ الذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر أو أنثى، وأبيض أو أسود، وحسن أو قبيح، وشقي أو سعيد.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا رب سواه، متفرد بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفي الآية رد على النصاري حيث ادعوا الألوهية عيسى؛ فنبه تعالى بكونه مصوراً في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب، على أنه عبد كغيره من العباد.

* يخبر تعالى عن القرآن وآياته، وموقف الناس من ذلك إما بالتصديق والقبول، وإما بالتشكيك والنفور، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾
أي: هو وحده الذي أنزل عليك - يا محمد - القرآن العظيم، فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هن أصل الكتاب وأساسه الذي يرجع إليه عند الاشتباه، ويُردّ ما خالفه إليه، وهي معظمه وأكثره.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ وفيه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، تحتمل بعض المعاني، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضل، ولهذا قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي: فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال، وهم أصحاب الشك فيتبعون المتشابه منه ويفسرونه على حسب هواهم ومقاصدهم.

﴿أَتَبِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ طلباً لفتنة الناس في دينهم وإضلالهم، وإيهاماً للأتباع بأنهم يتبعون تفسير كلام الله، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلَّمَتْهُوَ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله، فادعوا ألوهيته، وتركوا المحكم؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الدال على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ والتمكنون الثابتون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن وصدقنا به.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ كل من المتشابه والمحكم حق وصدق؛ لأنه كلام الله، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، والآية ثناء على أهل الإيمان لما حصل منهم من التسليم والاستسلام.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وإنما يفهم ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أصحاب العقول السليمة المستنيرة، وهو مدح للراسخين بنقاء الذهن وحسن التأمل. ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق والهدى جهلاً وعناداً منا، بعد أن مننت علينا بالهداية لدينك القويم وشرعك المستقيم فثبتنا على هدايتك، وعافنا مما ابتليت به الزائغين.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ يَوْمَئِذٍ وَهُمْ لَا يَسْعَوْنَ إِلَّا فِي فِتْنَةٍ فَتَقَلُّبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ فَيَقْتُلُهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصْرَهُ ۖ مَنْ يَشَأْ إِنْ فِي ذَلَالٍ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٢﴾ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٣﴾ قُلِ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِحَيْثُ مِمَّنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأُزُوجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ ۖ قَبْلَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٤﴾

٥١

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ امنحنا من فضلك وكرمك رحمة واسعة تثبتنا بها على دينك الحق.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ كثير الفضل والعطاء والهبات، واسع الإحسان، تعطي من تشاء بغير حساب. ولا شك أن من أسباب الثبات على الهدى والحق سؤال الله التثبيت؛ فإن الله هو الذي يثبتك ويهديك، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: نقر يا ربنا ونشهد بأنك ستجمع الخلائق في يوم لا شك فيه؛ هو القيامة يوم الحساب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي: وعدك حق، وأنت رب لا تخلف الموعد. * لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان، حكى أن الكفار به وبرسله الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ * كَذَابٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إِنَّ الَّذِينَ جحدوا الحق وأنكروه لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله وأليم عقابه في الآخرة، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ وهم حطب جهنم، الذي تسجر وتوقد به النار. ﴿كَذَّابٍ عَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: حال هؤلاء الكفار وشأنهم، كحال وشأن آل فرعون، وصنيعهم مثل صنيعهم، والذين من قبل آل فرعون، من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب وغيرهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أنكروا الآيات الواضحة التي تدل على رسالات الرسل. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أليم العذاب شديد البطش، لمن كفر به وكذب رسله. والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء.

* ثم ذكر تعالى إشارات وبشارات للمؤمنين بالنصر والغلبة، فقال سبحانه:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ يُلَاقُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ * ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قل - يا محمد - لليهود ولجميع الكفار والذين استهانوا بنصرك في بدر.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: تهزمون في الدنيا. لما أصاب رسول ﷺ قريشاً ببدر، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبي مرسل»، فقالوا - يا محمد: لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الرجال، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية.

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: تجمعون وتساقون إلى جهنم، وبئس الفراش الذي تمتهدونه وتستقرون فيه نار جهنم، وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على سائر اليهود، والله الحمد والمنة.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا﴾ قد كان لكم يا معشر اليهود المتكبرون المعاندون عظة وعبرة ودلالة عظيمة، في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر.

﴿فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله وهم محمد ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة وفيهم مائة فرس، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال:

﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ﴾ يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم في العدد مرتين، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجنبوا عن قتالهم، وقد جعل الله ذلك سبباً لنصر المسلمين عليهم.

﴿رَأَى الْعَيْنَ﴾ رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يقوي بنصره من يشاء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ إن في هذا الذي حدث لآية وموعظة عظيمة لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، الذين يهتدون إلى حكم الله وأفعاله. ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده.

* ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية، وحقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار، فقال:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ * قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: حسن إليهم وحب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات الدنيوية، وبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر، وفي الحديث: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [رواه البخاري]، ثم ذكر ما يتولد منهن، فقال:

﴿وَالْبَنِينَ﴾ وإنما ثنى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرّة الأعين، وقدموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله.

﴿وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي: الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوباً؛ لأنه يحصل به غالب الشهوات، والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خصها بالذكر، وسمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة فضة لأنها تنفض، أي: تفرق.

﴿وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ﴾ والخيل الأصيلة الحسان، وسميت خيلاً: لأن صاحبها غالباً يبتلى بالخيلاء؛ لأنها أفخر المراكب، أو لأنها تختال في مشيتها. ﴿وَالْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ﴾ أي: والأنعام من الإبل والبقر والغنم، فمنها المركب والمطعم والزينة، والزرع والغراس؛ لأن فيه تحصيل أقواتهم.

﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب وهو الجنة، وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وفيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلِكُمْ﴾ قل - يا محمد - أخبركم بخير مما زين للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير وإيهام الخبر للتفخيم.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: لمن راقب الله وخاف عقابه، يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وتحت قصورها وأرجائها الأنهار.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ
وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝ شَهِدَ اللَّهُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ اللَّهِ لَا يُسَلِّمُونَ إِلَّا لِلْإِسْلَامِ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلَّا كِتَابَ
إِلَٰهٍ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بِغَيَابَتِهِمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِعَايَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَاجَّكَ
فَقُلْ أَسْمَعْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْمِعُوا فَإِنْ أُسْمِعُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا
وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْسُوْنَ الَّذِينَ
يَغْيَرُونَ وَيَقْسُوْنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ
النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝

٥٢

﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ ماكين فيها أبد
الآباد لا ييغون عنها حولا.

﴿وَأَرْوَجَ مُطَهَّرَةً﴾ منزهة عن الدنس
والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوطن
ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن، ولا
يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولهم مع ذلك
النعيم أعظم من ذلك: رضوان من الله
وأى رضوان، وقد جاء في الحديث:
«أحل عليكم رضواني فلا أسخط
عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عليم بأحوال
العباد، يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

* ثم بين تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالشواب الجزيل
وبالخلود في دار النعيم، فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
* الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي: هؤلاء العباد المتقون يتوسلون إلى
الله بمنه عليهم وتوفيقه لهم إلى الإيمان، ويقولون: إنا آمننا وصدقنا بك
وبكتبك ورسلك.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فامح عنا ما اقترفناه من ذنوب لنا بفضلك ورحمتك، ونجنا من عذاب النار. ثم فصل أوصاف التقوى، فقال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي: الصابرين أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَالْقَنِيتِينَ﴾ والمطيعين لله في الشدة والرخاء.

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ الذين يبذلون أموالهم ويتصدقون في وجوه الخير سرّاً وعلانية طاعة لله ﷻ. ثم لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم، وأنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقالاً، بل يرون أنفسهم مقصرين مذنبين. ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي: هم السائلون للمغفرة بالأسحار، ووقت السحر قبيل طلوع الفجر لأنه مظنة القبول وإجابة الدعاء. إذ العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع.

* لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا عَامِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦]، أردفه بأن بيّن أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بين أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله، قال تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا

اٰخْتَلَفَ الَّذِيْنَ اٰوْتُوْا الْكِتٰبَ اِلَّا مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّاۚ بَيْنَهُمْۙ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيٰتِ اللّٰهِ فَاِنَّ اللّٰهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ * فَاِنْ حَآجُّوْكَ فَقُلْ اَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۚ وَقُلْ لِلَّذِيْنَ اٰوْتُوْا الْكِتٰبَ وَالْأُمِّيِّْنَ ؕ اَسْلَمْتُمْۙ فَاِنْ اَسْلَمُوْا فَقَدْ اَهْتَدَوْاۚ وَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّمَآ عَلَيْكَ الْبَلٰغُۚ وَاللّٰهُ بِصِيْرٍۙ بِالْعِبَادِۙ ﴿١٠٨﴾

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: بين وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية. لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالوا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سلاني»، فقالوا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ.

﴿وَالْمَلٰٓئِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ﴾ وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته، وقرن شهادته بشهادة الملائكة وأهل العلم على أجل مشهود، وهو توحيدته تعالى بدلائل خلقه وبديع صنعه، وبما عاينوا من عظيم قدرته، وفي هذا دليل على شرف العلم وأهله.

﴿قَآئِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق، ثم أعاد تقرير توحيده للتأكيد، فقال:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود في الوجود بحق إلا هو.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه لا يمتنع عليه شيء أرادته، الحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره. وفي الآية دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا

تكون إلا عن علم و يقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إن الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام وهو الانقياد لله وحده بالطاعة، والاستسلام له بالعبودية، واتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وما وقع الخلاف بين اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد ﷺ، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضل عن علم. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: كان هذا الاختلاف حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الملك والرئاسة وحفظ الدنيا.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ومن يكفر بآياته تعالى وحججه ودلائله على أن الدين عند الله الإسلام فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ويعاقبه على مخالفة كتابه، وفي هذا وعيد وتهديد.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فإن جادلوك وخاصموك - يا محمد - في شأن الدين بالشبه الباطلة والأقوال المحرفة، فقل لهم: أنا عبد الله قد استسلمت بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس.

﴿وَمَنْ أَتَّبَعْنِ﴾ وكذلك أنا وأتباعي على ملة الإسلام، مستسلمون منقادون لأمر الله.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وقل - يا محمد - لليهود والنصارى ولمشركي العرب الذين لا كتاب لهم، وغيرهم.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ لفظة استفهام ومعناه أمر، أي: هل أسلمتم، أم أنتم باقون على كفركم، فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور، وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وإن أعرضوا عن الإسلام فلن يضروك - يا محمد - إذ لم يكلفك الله بهدایتهم، وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب وقد أبلغتهم وأقمت عليهم الحجة، والغرض منها تسلية النبي ﷺ.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها. روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا،

فقال ﷺ لليهود: «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله» فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.

* ثم ذكر في الآيات اللاحقة أشد الناس جرماً، وهم الذين يكفرون بآيات الله رغم وضوحها وبيانها، ويقتلون الأنبياء الذين حقهم أو جب الحقوق على العباد بعد حق الله، قال تعالى:

﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يكذبون ويجحدون ما أنزل الله من الدلائل الواضحة، وما جاء به المرسلون.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويقتلون أنبياء الله ظلماً بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ ويقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل واتباع طريق الأنبياء وهذا هو غاية الكبر.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجه المهين، والأسلوب للتهكم، وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله، قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: بطلت أعمالهم التي عملوها من البرّ والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة، وليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

* ثم ذكر تعالى طرفاً من لجاج وعناد أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَلَّى الْمَلِكُ مَن تَشَاءُ وَتَنَزَّجُ الْمَلِكُ مَن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْحَزْبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تَوَلَّى الْإِثْلَ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى الْإِثْلَ فِي النَّهَارِ فِي الْإِثْلِ وَتَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلُهُمْ وَيحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَوَلَّى اللَّهُ الْمُصِيبُ * قُلْ إِن تَحْذَرُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الْكِتَابِ﴾ ألا تعجب - يا محمد - من أمر هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، فالصيغة صيغة تعجب للرسول أو لكل مخاطب.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي، أي: تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل. والآية تشير

إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان فحكم عليهم بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنع تعالى عليهم بهذه الآية:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذلك التولي والإعراض بسبب افتراءهم على الله، وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء، وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يوماً - مدة عبادتهم للعجل.

﴿وَعَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وهذا الاعتقاد أدى إلى جرأتهم على الله واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على دينهم الباطل الذي خدعوا به أنفسهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب يوم القيامة، وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ونالت كل نفس جزاءها العادل، وهم لا يظلمون بزيادة العذاب، أو نقص الثواب.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأمر رسوله بالدعاء والابتغال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين، قال تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ قل - يا محمد - متوجهاً إلى ربك بالدعاء معظماً له، وشاكراً لأنعمه، ومفوضاً إليه، ومتوكلاً عليه: يا من له الملك كله، يا مالك كل شيء.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أي: أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك والمال والتمكين في الأرض لمن تشاء من خلقك، وتخلع الملك ممن تشاء، وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد ﷺ.

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ وتعطي العزة في الدنيا والآخرة لمن تشاء بطاعتك، والذلة على من تشاء بمعصيتك.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بيدك وحدك خزائن كل خير، وأنت على كل شيء قدير. وفي الآية إثبات لصفة اليد لله تعالى على ما يليق به سبحانه.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: ومن دلائل قدرتك أنك تدخل الليل في النهار، كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاء وصيفاً.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وتخرج الحي من الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة

من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقيل: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميته، ويخرج النطفة الميته من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء.

﴿وَتَرْزُقْ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتعطي من تشاء من خلقك عطاء واسعاً بلا عد ولا تضيق، رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب.

* ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً، فقال:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا توالوا أعداء الله بالمحبة والنصرة من دون أوليائه فلا يجتمع للإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه، وفيه النهي أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرر ذلك في القرآن، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم في الإيمان. لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات؛ من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ومن يوالي الكفرة في نقل الأخبار وإظهارهم على عورة المسلمين، فليس من دين الله في شيء، بريء

من الله، والله بريء منه، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان.

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ أي: إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاةهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء اتقاء لشرهم وعصمة لدمائكم حتى تقوى شوكتكم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى فاتقوه وخافوه ولا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه وموالاة أعدائه فيعاقبكم على ذلك، وهذا وعيد شديد.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ إلى الله وحده المنقلب والمرجع، فيجازي كل عامل بعمله.

* ثم أخبر تعالى عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السموات والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ قل - يا محمد - للمؤمنين إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ذُرِّيَّةَ بَعْضِهِمَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ إِلَّا لَنَا نَفْسٌ وَلَوْ أَنَّ سَمِيَّتْهُمَا مَرْيَمَ وَلَوْ أَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَكُنَّا مِنْ الشَّاكِكِينَ الرَّحِيمِ ﴿٢٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَ هَارٍ قَالَتْ يَتَرَبَّصُّونَ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

٥٤

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو

سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ

خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: وفي يوم القيامة يجد

كل إنسان جزاء عمله حاضرًا لا يغيب عنه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإن كان عمله حسنًا سره ذلك وأفرحه.

والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها

وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: وإن كان

عمله سيئًا تمنى أن لا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد، أي مكانًا بعيدًا كما بين المشرق والمغرب لعظم أسفه وشده حزنه وطول ندامته.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوفكم عقابه فاستعدوا لهذا اليوم. ثم

قال ﷺ مرجعًا لعباده لئلا يئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه:

﴿وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، ومن رحمته ورأفته أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا للسخطه.

* ثم ذكر ﷺ آية عظيمة في وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ قل - يا محمد - إن كنتم حقاً تحبون الله وادعيتم هذه المرتبة العالية، فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق؛ الإيمان بمحمد ﷺ ظاهراً وباطناً؛ لأنه رسوله، ويجب اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، فمن اتبع الرسول وأطاعه دل على صدق دعواه محبة الله تعالى وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده، في جميع حركاته وسكناته.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين رحيم بهم.

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاکمة على كل من ادعى محبة الله تعالى، وليس متبعاً لنبيه محمد ﷺ حق الاتباع، مطيعاً له في أمره ونهيه، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتابع الرسول ﷺ حق الاتباع في جميع أقواله وأفعاله، ثم قال تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوا الله باتباع كتابه وأمر رسوله باتباع سنته.
 ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن أعرضوا عن الطاعة وأصروا
 على ما هم عليه من كفر وضلال، فليسوا أهلاً لمحبة الله، فإنه تعالى لا
 يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه.

* لما بين تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم، بين علو
 درجات الرسل وشرف مناصبهم، فبدأ بآدم أولهم، وثنى بنوح أبي البشر
 الثاني، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد
 إسماعيل، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيهم عيسى عليه السلام، وأعقب ذلك
 بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة
 عيسى، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى
 الْعَالَمِينَ﴾ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ أي: اختار للنبوّة صفوة خلقه، منهم آدم أبو البشر
 الذي اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر
 الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما
 فاق به سائر المخلوقات.

﴿وَنُوحًا﴾ واصطفى شيخ المرسلين نوحاً، فجعله أول رسول إلى أهل
 الأرض حين عبدت الأوثان، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن
 معه في الفلك المشحون.

﴿وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عشيرته وذوي قرباه، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما، ومن جملتهم خاتم المرسلين، ولهم من الفضائل والمناقب ما هو معلوم.

﴿وَعَالَ عِمْرَانَ﴾ أي: أهل عمران منهم عيسى ابن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: جعلهم أفضل أهل زمانهم.

وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال:

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: هؤلاء الأنبياء والرسل سلسلة طهر متواصلة في الإخلاص لله وتوحيده والعمل بوحيه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذه ويرديه.

* ثم ذكر ﷺ قصة أم مريم -عليهما السلام-، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ اذكر لهم -يا محمد- ما كان من أمر امرأة عمران، واسمها حنة بنت فاقود، وابنتها مريم أم عيسى عليه السلام، لترد بذلك

على من ادعوا ألوهية عيسى، أو بنوته لله سبحانه إذ قالت امرأة عمران حين حملت بمریم:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك وأوجبه لك.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقاً خالصاً لله مفرغاً لعبادة الله ولخدمة الكنيسة في بيت المقدس، لا أشغله بشيء من الدنيا.

﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فتقبل مني هذا العمل المبارك، إنك أنت وحدك السميع لدعائي، العليم بنيتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ فلما تم حملها ووضعت مولودها، قالت على وجه التحسر والاعتذار؛ كأنها تشوقت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعاً، قالت: يا رب إنها أنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس. قال ابن عباس: إنما قالت هذه؛ لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ والله أعلم بالشيء الذي وضعت، قالت ذلك أو لم تقله، وسوف يجعل الله لها شأنًا، وقالت:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ وقالت من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها: ليس الذكر الذي طلبته في القوة والجلد كالأنثى التي وهبتها في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها للينها وضعفها وما يعترئها من الحيض والنفاس، والأنثى لا تقوى على ما يقوى عليه الذكر من الخدمة. والجملتان معترضان من كلامه تعالى تعظيمًا لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تنمة كلام امرأة عمران، والأصل إني وضعتها أنثى، وإني سميتها مريم، أي: أسميت هذه الأنثى مريم، ومعناه في لغتهم العابدة، خادمة الرب ومقصودها من هذه الأخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، ثم دعت لها ولذريتها:

﴿وَإِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: أجيدها وأمنعها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، المُرْمى بالشهب، المطرود من رحمتك.

* فاستجاب الله لها دعاءها، وقبل منها نذرهما أحسن قبول ورضي بها، قال تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: قبلها الله قبولاً حسناً، وسلك بها طريق السعداء، وأجارها وذريتها من الشيطان.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وتولى ابنتها مريم بالرعاية، ورباها تربية كاملة، ونشأها تنشئة صالحة ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، فلهذا قال:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ويسر لها زكريا كافلاً لها، ومتعهداً للقيام بمصالحها، وهذا من رفقها ليربيها على أكمل الأحوال، حتى إذا بلغت مبلغ النساء فاقت عليهن في عبادة ربها، وانقطعت ولزمت محرابها تتعبد الله.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

هَذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ۚ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْرًا وَذَكَرَ رَبِّكَ ۚ فَكَثُرَ رُكُوعُهُ وَاسْتَسْمِعَ بِالنَّفْثِ وَالْإِنْفِثِ ۚ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكُمَا وَأَصْلَقَكُمْ ۚ عَلَي نِسَاءٍ الْعَالَمِينَ ۝٤١ يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝٤٢ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْ نَمُرْكُمُ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٣ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ بِكَلِمَةٍ فَمَنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٤٤

..

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: وكان كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاما، ورزقا هنيئا معدا، من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها:

﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أي: قال زكريا لمريم متعجبا: من أين لك هذا الرزق الطيب؟

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قالت

مريم: هو رزق من عند الله، إن الله بفضله يرزق من يشاء من خلقه رزقا بغير جهد ولا تعب.

* عندما رأى زكريا ما أكرم الله به مريم من رزقه وفضله، وما يأتيها من الفواكه في غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجته ويهب له ولدا في غير حينه على الكبر، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد، عندها توجه إلى ربه داعيا وراجيا، قال تعالى:

﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ

بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ *
 قَالَ رَبِّ أَتَىٰ يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
 يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ *.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله
 لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ارزقني من عندك - ولداً
 صالحاً، وكان شيخاً كبيراً وامرأته - عجوزاً وعاقراً.. ومعنى طيبة، أي:
 صالحة مباركة لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيب لدعاء من دعاك، فاستجاب الله دعاءه.
 ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾
 أي: فنادى جبريل زكريا وهو واقف بين يدي الله قائماً في الصلاة يدعوه،
 ويتضرع إليه، إن الله يخبرك بخبر يسرك، وهو أنك سترزق بغلام اسمه
 يحيى. وسمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته، وسمي
 عيسى كلمة الله؛ لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب.

﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم؛ له المكانة والمنزلة العالية بحيث يرجع
 إليه في الأمور.

﴿وَحَصُورًا﴾ يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً، ولا يقرب النساء مع

قدرته على ذلك، اشتغلاً بخدمة ربه وطاعته.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين، الذين بلغوا في الصلاح ذروته، وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى، ثم قال زكريا فرحاً متعجباً:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: رب كيف يأتيني الولد، قال ذلك استبعاداً من حيث العادة واستعظاماً للقدرة لا تشككاً، ولمزيد التضرع والجد في طلب الجواب عن سؤاله.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أي: أدركتني الشيخوخة وقد بلغت مني مبلغها، وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة.

﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد، وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السببين مانع من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم استعظاماً لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: هكذا أمر الله عظيم، يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ قال زكريا: رب اجعل لي علامة أستدل بها على حمل امرأتي ليحصل لي السرور والاستبشار وكمال الطمأنينة بهذه البشارة فأزيد في العبادة والشكر لك.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ أي: علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها، وأنت صحيح من غير آفة ولا سوء، والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر

الله، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ واذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة، فقد منع عن الكلام ولم يمنع عن الذكر لله والتسبيح له، وذلك أبلغ في الإعجاز، وهي آية من الآيات الباهرة والأدلة الظاهرة.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ نزه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله. وقيل: المراد صل الله، قال الطبري: يعني عظم ربك بعبادته بالعشي والإبكار.

* لما ذكر تعالى قصة ولادة يحيى ابن زكريا من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلغ وأعظم في خرق العادات، فذكر قصة ولادة المسيح عيسى عليه السلام من غير أب وهي شيء أعجب من الأول، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اذكر حين خاطبت وقالت الملائكة، أي جبريل: يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامات.

﴿وَوَهَّجْكَ﴾ من الأدناس والأقذار ومن مسيس الرجال، ومما اهتمك به اليهود من الفاحشة.

﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ واختارك مرة ثانية على سائر نساء العالمين في زمانك، لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد دون أب.

﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ أي: قالت لها الملائكة شفاهاً: الزمي عبادة ربك وطاعته، وأطيلي القيام في الصلاة شكراً على اصطفائه.

﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ واسجدي، واركعي مع الراكعين المصلين، شكراً لله على ما أولاك من نعمه، وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ذلك الذي قصصناه عليك -يا محمد- من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول، ومن قصة زكريا ويحيى، إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار المهمة التي أوحينا بها إليك إذ لم تكن تعلمها من قبل.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وما كنت -يا محمد- عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريد لها في كنفه ورعايته يحضنها ويربها.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وما كنت - يا محمد - هناك إذ يتنازعون فيمن يكفلها منهم، ففاز زكريا عليه السلام بكفالتها، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحيًا من عند الله العليم الخبير. روي أن حنة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحرار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم، ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها، وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جمًا وعملاً صالحًا.

* ثم ذكر تعالى بشارة الملائكة لمريم - عليها السلام -:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم - عليها السلام - بأعظم بشارة، بمولود يكون وجوده بكلمة من الله بلا واسطة أب.

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمه تنبئها على أنها تلده بلا أب، فنسب إليها.

قال بعض العلماء: الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا (مريم) هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته،

سورة آل عمران

الجزء الثالث

فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس، ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له.

﴿وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: سيداً ومعظماً فيهما، له القدر والجاه العريض في الدنيا والآخرة، ومن المقربين عند الله يوم القيامة، بل هو من سادات المقربين.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ويكلم الناس في المهد بعد ولادته قبل وقت الكلام، وكذلك يكلمهم في حال كهولته بما أوحاه الله إليه، وهذا تكليم

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ
أَلَّفَتُ بَيْنَ فِئَتَيْنِ الْاِثْنَيْنِ إِذْ أَقْبَضْنَاهُ قَائِمًا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ
فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْصَرَ
وَأُخْرِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتْلُو لَكُمْ مَا تَكُونُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كنتم مؤمنين ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مَرْسُلُهُ

النبوة والدعوة والإرشاد، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحالة الكهولة.

وقد أورد **﴿وَكَهْلًا﴾** بعد ذكر المهد حتى لا يقع في نفس مريم أن هذا الغلام معجزة لا يلبث أن يحدث سريعاً فطمأنها **﴿وَكَهْلًا﴾**.

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهو من الكاملين في التقى والصلاح والفضل في قوله وعمله.
﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ أي: قالت مريم متعجبة من هذا الأمر: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ولا بغى؟ وهذا استغراب منها لا شك في قدرة الله، إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد ولا أب له.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ قال لها الملك هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب.

﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب، بقول له «كن» فيكون كما يريد.

* ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ يذكر تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بانبها عيسى عليه السلام أن الله تعالى يعلمه الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة وكان أحسن الناس خطأً في زمانه.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: السداد في القول والعمل، أو سنن الأنبياء.

﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ويجعله يحفظ التوراة التي أوحاها الله إلى موسى والإنجيل الذي أنزل عليه، قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر كمالات أخرى وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من فضائل، فقال:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى الله ﷻ، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبهه صدقاً، ولهذا قال:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بأني قد جئتكم بعلامة من ربكم تدل على أني مرسل من الله، وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآية صدقي.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: أني أصنع لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ فيه فيصبح طيراً حقيقياً بإذن الله، قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله ﷻ، الذي جعل هذه معجزة له تدل على أنه أرسله، وهذه المعجزة الأولى.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ وأشفي من ولد أعمى، كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية.

وخص هذين؛ لأنهما داءان عياءان، وكان الغالب في زمن عيسى ﷺ الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك.

﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأحيى بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح. وكرر لفظ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة، وكانت معجزة عيسى عليه السلام في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة.

﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها، فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته، وهذه هي المعجزة الرابعة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فيما أتيتكم به من المعجزات التي ليست في قدرة البشر علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدقين بآيات الله. ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين.

﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى تخفيفاً من الله ورحمة، وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة.

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وجئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي، وهي ما أيديني الله به من المعجزات، وكرر ذلك تأكيداً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي: خافوا الله وأطيعوا أمري فيما أبلغكم به عن الله، فإن طاعة الرسول طاعة الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ إن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، وأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له - جل وعلا -؛ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعمًا ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادات.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته، هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه الموصل إلى الله وإلى جنته.

* لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالمسيح عليه السلام، ثم أعقبها بذكر معجزاته، وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله اليهود على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ عَامَتًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَكُفِّرُوا وَكَرِهَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: حين علم ووجد من اليهود التصميم على الكفر وعدم الانقياد له، والاستمرار على الضلال، وهموا بقتله وسعوا في ذلك، نادى في أصحابه الخُلَصَّ:

سورة آل عمران

الجزء الثالث

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٠٠﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠١﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣٠٢﴾ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا قَامُوا عَلَيْهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٠٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠٤﴾ ذَلِكَ تَسْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٣٠٥﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٣٠٧﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَهُمْ نَدْعُو نِسَاءَنَا وَنِسَاءَهُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَهُمْ فَنُصَلِّهِمْ سَوَاءً فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠٨﴾

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من يعاونني ويقوم معي في الدعوة إلى الله ونصرة دينه.

﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه وخاصته: نحن أنصار دين الله وأعوانه. ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ صدقنا بالله وبما جئتنا به، وأشهد يا عيسى بأننا مستسلمون لله بالتوحيد والطاعة، مخلصون في نصرتك.

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ربنا

صدقنا بآياتك، واتبعنا رسولك عيسى، فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق، وهم أمة محمد ﷺ الذين يشهدون للرسول بأنهم بلغوا أممهم. ثم أخبر تعالى عن اليهود المتأمرين الذين أرادوا قتل عيسى، فقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: أراد الذين كفروا من بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، بأن وكلوا به من يقتله غيلة، فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء دون أن يمس بأذى، وألقى شبهه على ذلك الخائن يهوذا فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام، وسمي مكرراً من باب المشاكلة، ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي: رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل تدبيرهم في تدبيرهم فانقلبوا خاسرين، وفي هذا إثبات صفة المكر لله تعالى، على ما يليق بجلاله وكماله؛ لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغته من حيث لا يعلم.

* ثم كانت نتيجة مكرهم وكيدهم أن نجا الله عبده ونبيه عيسى عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفُاعِكْ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفُاعِكْ إِلَىَّ﴾ أي: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إلى السماء ببدنك وروحك ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك، والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعهم إلى السماء سالمًا دون أذى. قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ثم متوفيك بعد ذلك.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك، ومخرجك من بينهم، ومنجيك منهم. وفيه إشارة إلى نجاسة الكفار معنويًا، وأن من يعايشهم ويتبع أثرهم ويتشبه بهم فسيعلق به أثر نجاستهم.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وجاعل أتباعك من النصارى الذين آمنوا بك، فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة، وهكذا وقع ذلك لما رفعه الله إلى السماء. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم مصير الخلائق كلها إلى الله يوم القيامة، فأقضي بين جميعكم بالحق، فيما كنتم تختلفون فيه من الدين وأمر عيسى عليه السلام.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فأما الذين كفروا بالمسيح من اليهود أو غلوا فيه من النصارى فإنني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي والجزية والذلة، والعقوبات الدنيوية الأخرى، وبالأخرة بنار جهنم وهو أعظم وأشد.

﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ وليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ وأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة؛ فيعطيهم الله جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة في الدنيا من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وفي الآخرة بأعظم الجزاء وأوفره وأحسنه.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يحب من كان ظالماً بالشرك والكفر بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وهذه منة عظيمة على رسولنا محمد ﷺ، أي: هذه الأنباء التي نقصها عليك -يا محمد- في شأن

عيسى ومريم والحواريين، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* ثم يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس به بحق بغير برهان ولا دليل، قال تعالى:

﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ط إن شأن عيسى إذ خلقه من غير أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم.

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: خلق آدم من غير أب ولا أم، ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم، فدعوى إلهية عيسى لكونه خلق من غير أب دعوى باطلة، فآدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، واتفق الجميع على أنه عبد من عباد الله.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: هذا القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكرين، وفي هذا تثبيت وطمأنينة لرسول الله ﷺ. ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فمن جادلَكَ في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان بأنه عبد الله ورسوله.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع، ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة، وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا الجزية. عن ابن عباس أنه قال: لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً. وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته، لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، قالو

الرسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: «وما أقول؟» قالوا: تقول إنه عبد، قال: «أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله، فأُنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية، وروي أنه ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: «كذبتُم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب» فقالوا: فمن أبوه فأُنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض:

سورة آل عمران

الجزء الثالث

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ
﴿٣٢﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِءَ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي بَرَاهِيمَ
وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٤﴾ هَٰذَا نَسَمُّهُ هَٰؤُلَاءِ حَبَجَتُمْ فِيمَا الْكُفْرُ بِهِ عِلْمٌ قَلِمٌ
تَحْجُونَ فِيمَا لَيْسَ الْكُفْرُ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾
إِنَّ أَوَّلَ الْإِنْسَانِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَضِلُّونَكُمْ وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰ أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٣٩﴾

إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأقروا بالجزية»، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك - يا محمد - في شأن عيسى هو النبأ الحق الذي لا شك فيه، وما من معبود يستحق العبادة إلا الله وحده، وفيه رد على النصراني في قولهم بالتثليث.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو - جل شأنه - العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه وتدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فإن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد وتولوا عن اتباعك وتصديقك، فإنهم المفسدون، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله، والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

* لما أقام - جل وعلا - الحجة على النصراني وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين اليهود والنصارى إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم؛ محمد عليه السلام وأمته، قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة، فيها إنصاف وعدل وحق، وهي التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون جميعاً فنلتزم بها جميعاً، وهي:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، بل تكون الطاعة كلها لله ولرسوله، ولا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيزاً وعيسى، وأطاعوا الأحرار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا. روي أن الآية لما نزلت قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم، فقال النبي ﷺ: «هو ذاك» [رواه الترمذي].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة، فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون، مقرون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة.

* لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد الله تعالى محاجتهم ومجادلتهم وأنكر ذلك عليهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ * هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم.

﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة، فكيف يكون من أهلها؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة، فكيف يقول بذلك عاقل؟ والاسْتفهام للتوبيخ.

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه.

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية دون علم، أفليست هذه سفاهة وحماقة؟

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك. ثم كذبهم الله تعالى في دعوى إبراهيم، وبرأه الله تعالى عما قالوا فيه؛ فقال:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرفة عن شرع موسى، وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسى. روي عن ابن عباس أن أخبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود: ما كان إلا يهوديًا، وقال النصارى: ما كان إلا نصرانيًا، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ مائلًا عن الأديان كلها إلى الدين القيم. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان مسلمًا ولم يكن مشركًا، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، ورد لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ إن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم وأخصهم به أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهجه في زمانه وبعده، وكل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقى.

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: محمد ﷺ، وخص بالذكر لفضله وشرفه، والمؤمنون من أمة محمد ﷺ، فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حافظهم وناصرهم.

* ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية، حذر تعالى عباده المؤمنين من مكر وخديعة أهل الكتاب وسعيهم في ذلك، قال تعالى:

سورة آل عمران

الجزء الثالث

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَيَوْمَهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ
إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي
الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
﴿٨٠﴾ بَلْ مَنَ أَوْفَىٰ بَعْدَهُ وَأَنْتَنَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
﴿٨١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَّمَنَ بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ * يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ
عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا
ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تَوْمِنُوا
إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ
هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي: تمت جماعة من
اليهود والنصارى إضلالكم أيها المسلمون بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً.
﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم،
إذ يضاعف به عذابهم، وما يفتنون أنهم يسعون في ضرر أنفسهم. ثم وبخهم
ﷺ على فعلهم القبيح، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل لم تجحدون آيات الله التي أنزلها على محمد ﷺ وبيان نعتة وصفته.

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: تعلمون أنه حق. ثم وبخهم على إضلالهم الخلق، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشبه والتحريف والتبديل؟

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وتخفون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك. ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرددوا عنه في آخره ليشتكوا الناس في دين الإسلام، فقال:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين.

﴿وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾ واكفروا بالإسلام آخر النهار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه ولا رجع عنه أهل العلم والكتاب.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تتممة كلام اليهود بعضهم لبعض حكاة الله عنهم، والمعنى: قال ذلك الرؤساء للسفلة: لا تصدقوا ولا تظهروا سركم وتطمئنوا لأحد إلا إذا كان على دينكم.

﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ قل لهم - يا محمد - إن الهدى ليس بأيديكم، وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويشته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية.

ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود، فقال:

﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا من تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه، ولا تقرّوا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم نبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قل لهم - يا محمد - أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله، والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ممن أتى بأسبابه، والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير العطاء واسع الإنعام، يعلم بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: يختص بالنبوة من شاء، وفضله واسع عظيم لا يحد ولا يمنع، لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

* لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم وعدم الوفاء، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلّ لهم أكل أموال الناس بالباطل، وفي الآيات شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين، قال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝﴾

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وإن من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أداه إليك لأمانته وهو على أداء ما دونه من باب أولى، كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ومن اليهود من لا يؤتمن على دينار لخيانتته ولا يؤده إليك إلا إذا بذلت غاية الجهد في مطالبتة كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ إلا إذا كنت ملازماً له ومشهداً عليه وملحاً في طلبك.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ﴾ ذلك الاستحلال والخيانة وعدم الوفاء وتركهم أداء الحقوق أنهم قالوا: ليس علينا أثم في عدم أداء أموال العرب إليهم. روي أن اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ﴾

[المائدة: ١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا، قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ويكذبون على الله بادعائهم ذلك، وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون. ثم قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ليس كما زعموا، بل عليهم فيه إثم، لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه، فإن الله يحبه ويكرمه؛ فإنه تعالى يحب المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل، ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئًا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده. عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «هل لك بينة؟» قلت: لا، قال لليهودي: «احلف» قلت: إذا يحلف فيذهب بمالي فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾ الآية.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَمْ يَكُنْ يَمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا أَلْمَلِكَةَ وَالنَّبِيَّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَل أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٣﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَسْمَآئِ وَالْأَرْضِ طَلُوعًا وَكُرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾

٦٠

﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظَرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى في الآخرة، ولا يكلمهم كلام أنس ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم، ولهم عذاب مؤلم موجه للقلوب والأبدان على ما ارتكبه من المعاصي.

* وبعد ذلك الوعيد الشديد يخبر

تعالى عن تحريفهم كلام الله ﷻ، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ وإن من اليهود طائفة يحرفون الكلام عن مواضعه، وعن المقصود به في حال قراءة الكتاب، لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه. قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يفعلون ذلك ليوهموا غيرهم أن هذا المحرف من كلام الله المنزل وهو التوراة وما هو إلا تضليل وبهتان.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ أي: ينسبونه إلى الله أوحاه إلى نبيه موسى، وهو كذب وافتراء على الله.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهم لأجل دنياهم كذبوا وافتروا على الله.

* ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله. وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب

للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد - يا محمد - أن نعبدك مع الله، والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشرعية فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل؛ لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف

يدعوهم إلى عبادة نفسه، وإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى.

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ﴾ ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين، حكماء علماء حلماء، والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إياه.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي: وما كان لأحد أن يأمركم بعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء -؛ لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له.

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري تعجبي.

* لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على جميع الأنبياء.

﴿لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لئن آتيتكم من كتاب وحكمة، قال الطبري: المعنى لمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة.

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم، وهو محمد ﷺ.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ لتصدقن ولتنصرنه. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته.

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: أأقررتم واعترفتكم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي الموثق؟

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ اعترفنا بذلك وقبلنا ما أمرتنا به.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال الله لهم: اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم، وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك، وفي هذا أن الله أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد ﷺ وأخذ الميثاق على أمم الأنبياء بذلك.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن أعرض ونكث عن دعوة الإسلام بعد هذا البيان وهذا العهد المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله، فهم الخارجون عن دين الله وطاعة ربه.

* ثم يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله الذي أنزل على الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، ويبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، قال تعالى:

﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ * قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي، أيتغي أهل الكتاب دينًا غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله استسلم وانقاد وخضع له أهل السموات والأرض.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعين ومكرهين، فالمؤمن أسلم طائعًا، والكافر أسلم كارهًا حين لا ينفعه ذلك. قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقاله لله طوعًا، والكافر مستسلم لله كرهًا فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

سورة آل عمران

الجزء الثالث

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٥﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٦﴾ كَيْفَ
يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ أُولَٰئِكَ جَزَّأُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ أَزْدَادُ كُفْرًا لَّنْ نَقْبَلُ تَوْبَهُمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ
أَفْتَدَىٰ بِهَا أُولَٰئِكَ لَمْ يَعْدَابُ أَلَيْسَ لِمَنْ هُمْ قَاتِلُونَ تَصْرِيفٌ ﴿٩٢﴾

٦١

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُونَ﴾ يوم المعاد،
فيجازي كلًّا بعمله، وهذا تحذير من
الله تعالى لخلقه أن يرجع إليه أحد منهم
على غير ملة الإسلام، ولما ذكر الملل
واضطراب الناس فيها، أمر رسوله ﷺ:
﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾
قل - يا محمد - أنت وأمتك آمنة بالله
فلا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه،
وآمنة بالقرآن المنزل علينا.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وآمنة
بما أنزل على إبراهيم خليل الله وابنيه
إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب

بن إسحاق، من الصحف والوحي، والذي أنزله الله على الأسباط وهم
الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل من ولد يعقوب.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل.

﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وما أنزل على الأنبياء جميعهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ نؤمن بذلك كله ولا نكفر بالبعض كما فعل
اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون في العبادة، مقرون له بالألوهية
والربوبية، لا نشرك معه أحداً أبداً. ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام
باطل ومرفوض، فقال:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ومن يدين ديناً غير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده فعمله مردود غير مقبول؛ لأن دين الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد ﷺ بالإيمان به وبمتابعته ومحبه ظاهره وباطنه.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ مصيره إلى النار مخلداً فيها.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم، أي: كيف يستحق الهداية قوم اختاروا الكفر والضلال بعد إيمانهم. عن ابن عباس قال: ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله هل لي من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم. ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ وبعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله.

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وجاءتهم المعجزات، والحجج البينات، على صدق النبي محمد ﷺ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغيّاً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء يوفقون للهداية ولطريق السعادة. قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين فهم مطرودون من رحمة الله. والجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس، ثلاث بثلاث.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ماكثين في النار أبد الأبد، لا يفتر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ولا يؤخرون لأن زمن الإمهال قد مضى.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ورجع إلى ربه بالتوبة النصوح من بعد كفرهم وظلمهم، واصلحوا ما أفسدوه بتوبتهم فإن الله يقبلها.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ متفضل عليه بالرحمة والغفران وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائده على خلقه؛ أن من تاب إليه تاب عليه.

* يخبر تعالى متوعداً ومهدداً أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديهِ في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبته، قال تعالى:

﴿٩٠﴾، ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ؕ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۝

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى، ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن. ﴿لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي: لا تقبل منهم توبة عند حضور الموت ولا يوفقون لها، لأنهم خارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، وأي ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن علم وبصيرة. ثم أخبر تعالى عمن كفر ومات على الكفر، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ وماتوا على الكفر بالله ورسوله، ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ؕ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولهم عذاب مؤلم موجه.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

الجزء الرابع

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الْأَعْمَالِ كَانَتْ جَلًّا لِبَنَاتِ إِسْرَءِيلَ بَلْ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّوْرَةُ فَلْأَنَّهُمْ فَاتَوُوا بِالْتَّوْرَةِ فَأَنشَأُوا لَهَا كُتُبَ صَدَقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عَوَّجًا أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّي طَبِّعُوهَا رِيفًا مِنَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكُتُبَ يَرْذُكُمُ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾

٦٢

* لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، ويّسّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملاء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، ذكر هنا - استطراداً - ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة، حاثاً عباده على الإنفاق في طرق الخيرات.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لن تكونوا من الأبرار، ولن تدرکوا الجنة حتى تتصدقوا من أفضل

أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإن ذلك يدل أنكم قدمتم محبة الله ومرضاته على محبة الأموال، وهذا دليل على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما تبدلوا من شيء في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء على حسب نياتكم ونفعه.

* ثم رد ﷺ على اليهود في شبههم التي أوردوها حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام، ومن ذلك بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعبسى ومحمد ﷺ، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم، قال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ كل الأطعمة كانت حلالاً لنبي إسرائيل - أبناء يعقوب، إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لمرض نزل به، فندر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن من أحب الأطعمة إليه، وهو لحم الإبل ولبنها، ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل لهم - يا محمد - ائتوني بالتوراة واقرووها عليّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيتكم وظلمكم، وهذا أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبيّتهم بما هو ناطق به، فلما حاجهم بكتابهم وبكتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فمن اختلق الكذب من بعد قراءة التوراة وقيام الحجة وظهور البينة، فأولئك هم المعتدون المكابرون القائلون على الله بالباطل.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ قل لهم - يا محمد - صدق الله في كل ما أوحى وفي كل ما أخبر به، وفيما شرعه وحكم.

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي مُحِبَّتِكُمْ وَانْتِسَابِكُمْ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاتْرَكُوا الْيَهُودِيَّةَ وَاتَّبِعُوا مِلَّةَ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ.

﴿حَنِيفًا﴾ مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ كُلِّهَا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بَرَاهُ تَعَالَى مِمَّا نَسَبَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَفِيهِ تَعْرِيزٌ بِإِشْرَاكَهُمْ.

* ثُمَّ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَرَفِ هَذَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ لِرَبِّهِمْ فَتُغْفَرُ أَوْزَارُهُمْ، وَتُقَالُ عَثْرَاتُهُمْ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ مَا يَنَالُونَ بِهِ رِضَى رَبِّهِمْ، وَالْفَوْزُ بِثَوَابِهِ، وَالنَّجَاةُ مِنْ عِقَابِهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ * فِيهِ عَايَةٌ بَيَّنَّتْ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ أُسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ إِنَّ أَوَّلَ مَسْجِدٍ بَنِيَ فِي الْأَرْضِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ الَّذِي بِمَكَّةَ.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي: وَضَعَ مُبَارَكًا، كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ لِمَنْ حَجَّه وَاعْتَمَرَهُ، حَيْثُ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَسَنَاتُ وَتَنْزَلُ فِيهِ الرَّحْمَاتُ وَمُصَدِّرًا لِلْهُدَايَةِ وَالنُّورِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَتُهُمْ.

ثُمَّ عَدَدَ تَعَالَى مِنْ مَزَايَاهُ مَا يَسْتَحِقُّ تَفْضِيلَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ، فَقَالَ:

﴿فِيهِ عَايَةٌ بَيَّنَّتْ﴾ فِي هَذَا الْبَيْتِ عَلَامَاتٌ وَاضِحَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى

شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى سَائِرِ الْمَسَاجِدِ، مِنْهَا:

﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حين رفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، وفيه زمزم والحطيم، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود.

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] فلا يناله أحد بسوء حتى الشجر والنبات والطيور.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وأوجب الله على المستطيع من الناس حج بيت الله العتيق.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه. قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه. وفي الآيات ذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها، فوصف بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع: ما تضمن من الآيات البيّنات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله.

* ثم أخذ يكت أهل الكتاب ويوبخهم على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله التي أنزلها على رسله، فقال:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو سبحانه مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها، وفي هذا تهديد ووعد لهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ﴾ قل - يا محمد - لليهود والنصارى لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي: عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم، ونياتكم ومكركم السيء، وصدكم عن سبيله، وهو وعيد شديد، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام، ثم صدوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس.

سورة آل عمران

الجزء الرابع

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مَمْرٍ ۚ أَلَا تَرَ أَنَّ الْآيَاتُ تَقُودُهُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٨﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ فَذُرُّوهُمُ الْعَذَابَ ۚ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

٦٣

* ولما توعد الكفار ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم، لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون وذلك لحسدهم وبغيهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن طيعوا طائفة من أهل الكتاب.

﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ يصيروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، ويلقوا إليكم الشبه في دينكم، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام. يروى أن شاس ابن قيس اليهودي مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاضه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما

قيل فيه من الأشعار - وكان يوماً اقتتل فيه الأوس - والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم» فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيداً من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله ﷻ: ﴿يُرَدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ الآية.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار واستبعاد، أي: كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تنزل عليكم، والوحي لم ينقطع ورسول الله حي بين أظهركم؟ يبلغها لكم وينبهمكم ويزيح عنكم شبهكم.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومن يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله ويتوكل على الله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريقة الموصلة إلى جنات النعيم؛ لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه إلى الممات، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي: خافوا الله حق خوفه، وذلك بأن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وتمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام، والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام. ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، فقال:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وتمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا تتفرقوا عنه، ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب.

﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداء يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض فجمع الله قلوبكم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحتم بفضلله إخواناً متحابين.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات لما فيه صلاحكم ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين وتسلكوها، فلا تضلوا عنها، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألستهم ليزدادوا شكرياً له ومحبة وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه، نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

* لما حذر تعالى من مكاييد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف، ثم ذكر ما حل باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان، فقال سبحانه:

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسَوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ولتقم منكم - أيها المؤمنون - الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بجعله طائفة وجماعة للدعوة إلى الله.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: للأمر بكل معروف وهو الدعوة إلى الإسلام وشرائعه، والنهي عن كل منكر وهو كل ما خالف هدي النبي ﷺ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. ثم نهاهم من التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه ووقعت بينهم العداوة والبغضاء بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات الموجبة لعدم التفرق والاختلاف.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي. ثم فصل لأحوال الفريقين بعد الإجمال.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أما أهل النار الذين اسودت وجوههم، فيقال لهم على سبيل التوبيخ: أكفرتم بعد إيمانكم، أي: بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل.

الجزء الرابع

سورة آل عمران

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٨﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدْنَى وَهَنٍ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَارُكُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٢٠﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّيلَةُ أَنْتُمْ مَا تُقَاتِلُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبِعَصَبِ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَالِيَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ يَغْرِحُونَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢١﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٢٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَدُّونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾

٦٤

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وأما السعداء الأبرار الذين أبيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات وما بشروا به من الخير. ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فهم في جنته ودار كرامته مخلدون لا يخرجون منها أبداً. وعبر ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ هذه آيات الله وبراهينه نقصها عليك - يا محمد - مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ وما كان الله ليظلم أحداً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ لأنه تعالى الحاكم العدل الذي لا يجور. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ والله ما في السموات وما في الأرض، ملك له وحده خلقاً وتديراً.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: ومصير جميع الخلائق إليه وحده فهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة فيجازي كلًّا بعمله، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* ثم ذكر تعالى فضل هذه الأمة ومكانتها وما أوصلها إلى تلك المنزل، فقال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس، ولهذا قال:

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم. روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها» ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما أمر به الله ورسوله، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وهو كل ما نهى عنه الله ورسوله، وتصدقون بالله تصديقاً جازماً يؤيده العمل، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ عَآمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن حالهم أن:

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: منهم فئة قليلة مؤمنة مصدقة برسالة محمد ﷺ وعاملون بها كالنجاشي وعبد الله بن سلام، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله.

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ لن يضركم هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب إلا ضرراً يسيراً بألستهم من سب وطعن وغير ذلك. ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله:

﴿وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلْدَبَارَ﴾ أي: ينهزمون ويهربون مولين الأدبار من غير أن ينالوا منكم شيئاً.

﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ثم شأنهم الذي أبشركم به، أنهم مخذولون لا ينصرون، بل يكون لكم النصر.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ﴾ لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا، وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه فهم أذلاء محتقرون.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ إلا إذا اعتصموا بعهد من الله، وعهد من الناس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وذلك هو عقد الذمة لهم، وإلزامهم أحكام الإسلام.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله مستحقين له، وهذا أعظم العقوبات.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ ولزمتهم الفاقة والذلة فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم فلا ترى اليهودي إلا وعليه الخوف والرعب من أهل الإيمان، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾
ذلك الذل والصغار والغضب والدمار، بسبب جحودهم بآيات الله التي أنزلها على رسوله

محمد ﷺ وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً؛ فهم يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بسبب تمردهم وعصيانهم وتجاوزهم أوامر الله تعالى.

* لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

صِرْ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣٧﴾

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء، لما أسلم عبد الله ابن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ الآية، ولما ذكر تعالى أن أهل الكتاب ليسوا سواء، قال:

﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: منهم طائفة مستقيمة على دين الله مؤمنة برسوله محمد ﷺ، يتعهدون في الليل بتلاوة آيات الله، مقبلين على مناجاة الله في صلواتهم، وفي هذا بيان لطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يؤمنون بالله ويصدقون بكل نبي أرسله، وخص الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يثبت المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم على الوجه الصحيح.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لما حصل تكميلهم لأنفسهم بالإيمان ولوازمه، سعوا إلى تكميل غيرهم بأمرهم بكل خير ونهيهم عن كل شر.

﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعملونها مبادرين غير متاقلين وذلك من شدة رغبته في الخير.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
 صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
 ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبْرًا
 وُدًّا وَمَا عَدُّوا بِدَتِ الْبَغْضَاءِ مِنْ أَقْوَاهُمْ وَمَا تُخْفِي
 صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾
 هَئِنْتُمْ أَوَّلَ حُبِيْبٍ لَهُمْ وَلَا يُحِيبُونَكُمْ وَيُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ
 كِتَابِهِ وَإِذَا الْقَوُورُ قَالُوا أَمَّا إِذَا أَخْلَوْا عَصَاوَا عَلَيْهِمْ
 الْآثَامِلِ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعِظِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِدَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٤٠﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تُمْسِكُونَهَا وَإِنْ تَصِبْكُمْ
 سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤١﴾ وَإِذَا عَدُوَّتْ مِنْ أَهْلِكَ
 تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِيَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فهو لاء

الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة؛ هم في زمرة عباد الله الصالحين الذين يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ

يُكَفِّرُوهُ﴾ وأي عمل كثر أو قل

من أعمال الخير تعمله هذه الطائفة المؤمنة، ما عملوا من عمل صالح قليلاً أو كثيراً فلن يضيع عند الله بل يشكرهم، ويجازون عليه، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب

صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهذا قال:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه

أجر المتقين، وفي هذا بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، وخص الأولاد؛ لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبه.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مخلصون في عذاب جهنم لا يخرجون منها ولا يفارقونها. ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ مثل ما ينفق الكافرون في الدنيا في المفاخر والمكارم بقصد الشاء وحسن الذكر بين الناس كمثل ريح عاصفة فيها برد شديد.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ﴾ أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم كانوا يرجون خيره، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به؛ فكَذَلِكَ الكفار يمحى الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم وإبطال أعمالهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب، حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله. * ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم، أو يولونهم بعض الأعمال، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُورًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ * هَآنَتْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الْصُّدُورِ * إِنْ تَمَسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا
وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ * أَي: لا تتخذوا
المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من
غير المؤمنين.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ فهو لاء لا يقصرون لكم في الفساد وحصول
الضرر عليكم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: وهم يفرحون بما يصيبكم من مشقة وضرر ومكروه.
﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على
ألسنتهم بالشتيمة والوقية في المسلمين، فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم
حتى يصرحوا بذلك بأفواههم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وما يطنونه لكم من البغضاء والعداوة أكثر
وأعظم مما يظهره وتسمعون؛ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور.
﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ وضحنا لكم الآيات الدالة على
جوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة أعدائه
الكافرين لتتعظوا وتحذروا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كنتم عقلاء تعقلون عن الله أمره ونهيه ففرقوا بين
الصديق والعدو، وهذا على سبيل الهز والتحريك للنفوس.

* ثم بين سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين، وذكر الدليل على خطأ
المؤمنين في محبتهم، فقال:

﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هآ أنتم يَا معشر المؤمنين خآطئون في موالآتكم إذ تحبونهم وتحسنون إليهم وهم على الضد من ذلك لآ يحبونكم، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة والبغضاء لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَآبِ كُلِّهِ﴾ وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لآ يؤمنون بكتابكم وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أطلب منكم في حقكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ وهذا من خبثهم، إذ يظهرون أآامكم الإيمان نفاقآ ويقولون آمنا وصدقنا.

﴿وَإِذَا خَلَوْآ عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وإذا خلت مجالسهم منكم، وكان بعضهم مع بعض عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب والغيظ لما يرون من ائتلافكم، وعزتكم، واجتماعكم، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من أذية المؤمنين والعجز عن الانتقام منكم.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم، قل - يَا محمد - أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا بغمكم وحننكم، وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لآ يضرون إلا أنفسهم، وأن غيظهم لآ يقدرّون على تنفيذه، بل لآ يزالون معذيين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين، وسيجازي كلاً على ما قدم من خير أو شر. ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين، فقال:

﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إن أصابكم ما يسركم من رخاء وخصب ونصر وغنيمة ونحو ذلك من الخير ساءتكم وظهرت عليهم الكآبة والحزن. ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وإن أصابكم ما يضركم من شدة وجذب وهزيمة وأمثال ذلك سرتهم، وفرحوا بها. فبين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة. ثم أرشد عباده المؤمنين إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ إن صبرتم على أذاهم وعداوتهم، واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم وتوكلتم عليه، لا يضركم مكرهم وكيدهم، وكنتم في حفظ الله، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو، في نفي ضرره بالصبر والتقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو سبحانه عالم بما يدبرونه لكم من مكائد، فيصرف عنكم شرهم، ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة وسيجازيهم عليها.

* يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة أحد بالإسهاب، وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً

ليذكرهم بنعمته تعالى لما نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعَدَد، وهذه الآية في افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة. روى الشيخان عن جابر قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ قال نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾»، قال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ اذكر - يا محمد - حين خرجت من بيتك إلى غزوة أحد لا بساً عدة الحرب في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة.

﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ تنزل المؤمنين وترتب أماكنهم وتنظم صفوفهم لقتال عدوهم، وتنزل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة

سورة آل عمران

الجزء الرابع

أحد، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث

في مقاعد القتال وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، وشجاعته الكاملة - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يباشر هذه الأمور بنفسه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ونياتكم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ واذكر - يا محمد - ما كان من أمر بني سلمة وبني الحارث من الفشل والجبن والخور، حيث حدثتهم

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ بِمَا شَاءَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُمْزِلِينَ ﴿١٢٦﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَأُتُوا نَوْعًا مِنْ فَوَهِمٍ هَذَا يُبَدِّلُ دِينَكُمْ بِمَنْشَأِ الْفَوِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِيًّا وَلِيَّامَنَ فُلُوبُكُمْ بِهِ ﴿١٢٨﴾ وَمَا أَتَاكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٩﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٠﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّ النَّبِيِّاتِ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو جَبَرٍ ﴿١٣٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٣﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٥﴾

أنفسهم بالجوع وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألف من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبي؛ بثلاث الجيش، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهم الحيان من الأنصار بالجوع والتخلف، فعصمهم الله ولطف بهم وأحسن إليهم فمضوا مع رسول الله ﷺ متوكلين على الله، وذلك قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في جميع أحوالهم وأمورهم، والتوكل هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. ثم

ذكرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عما أصابهم من الهزيمة يوم أحد، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: نصركم يوم بدر مع قلة عددهم وعددهم لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدة، وذكر منته على عباده هنا ليتذكروا ربهم ويتقوه ويشكروه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي: وخافوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه وفي الثبات مع رسوله لعلكم تشكرون له ما من به عليكم من النصر، فإن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى لم يشكره.

* ثم ذكرهم الله ﷻ بما جرى يوم بدر من التأييد والنصر والتمكين، فقال تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ * وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ اذكر - يا محمد - ما كان من أمر أصحابك في بدر حين

شق عليهم أن يأتي مدد للمشركين فأوحينا إليك أن تقول لهم: أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء إلى أرض المعركة لنصرتكم وتثبيتكم، والقتال معكم.

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بلى تصديق للوعد، أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم على القتال في المعركة وانقيتم الله وأطعتم أمره، وبشارة أخرى لكم: إن تصبروا على لقاء العدو وتتقوا الله بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه.

﴿وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ فَوْرِهِم هَذَا﴾ أي: يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه لقتالكم يظنون أنهم سيستأصلونكم، فشرط تعالى لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط له الشرطين الأولين.

﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ يزدكم الله مدداً من الملائكة قد أعلموا أنفسهم وخيولهم بعلامات واضحات.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً، ولتسكن قلوبكم وتطيب بوعده الله لكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ولا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العدد والعدد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغلب في أمر، الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وكان نصر الله لكم ببدر؛ ليهلك طائفة من الكفار بالقتل والأسر، ويهدم ركنًا من أركان الشرك.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة، ومن نجا منهم من القتل رجع حزينًا قد ضاقت عليه نفسه. وحقيقة الكبت: شدة وهن تقع في القلب فيصرع في الوجه لأجله.

﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك بهم في غزوة بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين، وأعز الله المؤمنين، وأذل الشرك والمشركين.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هذه الآية وردت اعتراضًا وهي في قصة أحد، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف، قال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟!». فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وليس لك - يا محمد - من أمر تدبير العباد شيء، وإنما الأمر كله لله وحده لا شريك له.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ليدل ذلك على كمال عدل الله

وحكمته، وقد كان كذلك فكان منهم من أسلم وحسن إسلامه ونفع الله به الإسلام والمسلمين. ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء، قرر أن الأمر له، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: له - جل وعلا - ملك السموات والأرض يغفر لمن
يشاء برحمته وهو الغفور الرحيم ويعذب من يشاء بعدله، والله غفور لذنوب
عباده، رحيم بهم؛ وفيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت
مؤاخذته، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة على وجه المبالغة.

❁ ثم نهى ﷺ عن أكل الربا، وأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فقال سبحانه:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ^ط هذا نهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه، إذ كانوا في الجاهلية إذا حل أجل الدين يقول الدائن: إما أن

الجزء الرابع

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

* وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
 فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُتَّامِ الْعِظَمَاءِ وَالْعَافِيَةِ
 عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا
 فَجِئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
 لِأُثُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا
 فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن
 رَبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِهِمْ
 أُجِرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ فَذَلِكُنَّ مِن قَبْلِكُم سُنَنٌ فَبُيِّرُوا
 فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبُهُ الْمُكْذِبِينَ
 ﴿١٣٥﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾
 وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ
 ﴿١٣٧﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ۖ وَتِلْكَ
 الْأَلْبَابُ يُدْوَىٰ لَهَا بَابٌ ۖ النَّاسُ وَلَيْعَلَهُمُ اللَّهُ الْيَتِيمَ ۖ ءَامِنُوا
 وَتَخَذُوا مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت للمتقين لله، فهم أهلها الذين وصفهم في كتابه بئذ الندى وكف الأذى ولو كان الأذى بحق، فذكر من صفاتهم:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الذين يبدلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا شيئاً ولو قل، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: والذين يمسكون غيظهم بالصبر إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وحقنهم مع قدرتهم على الانتقام. والغيط: توقد حرارة القلب من الغضب، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» [رواه الطبراني].

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم بالقول أو الفعل، واستحق المؤاخذة، وذلك من أجل ضروب الخير. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء. ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها، وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه. عن الثوري: الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة.

وبعد أن ذكر تعالى حال معاملتهم للخلق، وصف قيامهم بحق الحق واعتذارهم لربهم من جنایاتهم وذنوبهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ والذين إذا ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يأتیان أي ذنب دون الكبائر.

﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بادروا إلى التوبة والاستغفار، وتذكروا عظمة الله ووعدده ووعيدده فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا طالبين المغفرة وراجين الرحمة.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة، وليبان أن الذنوب - وإن جلت - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقيموا ولم يشبوا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، بل يقلعون ويتوبون وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم، فوصفهم تعالى عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار وهو حقيقة التوبة النصوح، ولهذا ذكر جزاءهم فقال:

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة، جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب.

﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ولهم جنات برحمته تجري خلال أشجارها وقصورها المياه العذبة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً.

* لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر

بالتفصيل غزوة أحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول، قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *﴾

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء، وأبتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فكانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين، ولهذا قال:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم من أنواع العقوبات الدنيوية لتعتبروا وتتعتظوا بما ترون من آثار هلاكهم وما آل إليه أمرهم.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ هذا القرآن بيان وإرشاد شاف للناس عامة.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهداية لطريق الرشاد، وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكر؛ لأنهم هم المتفعون به دون سائر الناس، التي هي بيان لهم تقوم به عليهم الحجة في الله. ثم أخذ يسليهم

عما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح في وقعة أحد، ومشجعاً ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ولا تضعفوا - أيها المؤمنون - . عن الجهاد ولا تحزنوا لما أصابكم في «أحد» من قتل أو هزيمة فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم ولا ينبغي لهم ذلك، وفي هذا تسلية من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم.

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم بالنصر والظفر عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الواقعة، وقد صدق الله وعده فإن النبي ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعدوه في جميع وقعاته. قال ابن القيم: للبعد من العلو بحسب ما معه من الإيمان.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم حقاً مصدقين بالله ورسوله، فلا تهنوا ولا تحزنوا. ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: إن أصابتكم - أيها المؤمنون - جراح أو قتل في غزوة «أحد» فحزنتم لذلك، فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم يوم بدر.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وتلك الأيام يصرفها الله بين عباده، من نعم ونقم، نعطي لهؤلاء تارة ولهؤلاء تارة، لما في ذلك من الحكمة.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين وهذا من الحكم الإلهية.

سورة آل عمران

الجزء الرابع

وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١١١﴾ وَلَقَدْ كُفِّرْتُمْ مَنُوتَ الْمَوْتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَكُنْ بِضُرٍّ مِنَ اللَّهِ شَتَّى وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّتَكُمْ وَمَنْ يُرِيدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فُوَيْتَ مِنْهَا وَمَنْ يُرِيدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فُوَيْتَ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَخُسُوفَ الثَّوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾

٦٨

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله؛ لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، وهو سبحانه لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد وقعدوا عن القتال في سبيله.

﴿وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: وهذه الهزيمة التي وقعت في «أحد» كانت اختباراً وتصفية للمؤمنين ونيقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يهلكهم ويفنيهم شيئاً فشيئاً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: لا يحصل لكم دخولها حتى تبتلوا، ويعلم الله المجاهدين في سبيله، فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟ قال الطبري: المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل

الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه. ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي: ولقد كنتم -أيها المؤمنون- تتمنون لقاء الأعداء ومناجزتهم لتحظوا بالجهاد وتنالوا الشهادة في سبيل الله. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه بأعينكم حين قتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل، وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول.

* ثم بين تعالى أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين، فقال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَكَاتِلُهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس محمد إلا رسول من جنس الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وليسوا بمخلدين، منهم من مات، ومنهم من قتل.

﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن أ مات الله محمداً، أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم.

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ ومن يرجع عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب. ولما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله وامثل أمر ربه، فقال:

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: أما من ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام فإن الله يثيب المطيعين، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، وهذا يتضمن الحث على الجهاد والإعلام بأن الموت لا بد منه، فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لن يموت أحد إلا بإذن الله وقضائه وقدره.

﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: وحتى يستوفي المدة التي قدرها الله له، كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجن لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن أراد بعمله أجر الدنيا وعرضها، أعطيناه منها ما قسمناه له من رزق، وليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم، فبين تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبذولة للبر والفاجر.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرة وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسناً.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم لإعلاء كلمة الله، قاتلوا فقتل منهم من قتل. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما جبنوا ولا ضعفت همهم، ولا وهنت أبدانهم لما أصابهم من القتل والجراح؛ لأن ذلك في سبيل ربهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ وما عجزوا عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب.

﴿وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ وما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ أي: إنما صبروا على ما أصابهم، ويحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تزل سنة الله جارية بذلك. ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: ما كان قول هؤلاء الصابرين: إلا طلب المغفرة من الله، وإضافة الذنوب إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضمًا لأنفسهم.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك.

﴿وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبتنا في مواطن الحرب حتى لا نفر من قتال عدونا.
﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وانصرنا على من جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك، وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة.

﴿فَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ فجمع الله لهؤلاء الصابرين بسبب ذلك بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد، وبين جزاء الآخرة وهو الفوز برضا ربهم وبالجنة ونعيمها، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

أي: يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتمد به عند الله.

* لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من الدروس والعظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف

سورة آل عمران

الجزء الرابع

المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتأمروهم على الإسلام بتشيط عزائم المؤمنين، وفي ذلك تقوية وتسلية للمؤمنين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُون عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٦٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٦١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُون عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

٦٩

تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُون عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما أمر تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر من طاعة الكفار، أي: يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، إن تطيعوا الذين جحدوا ألوهيتي ولم يؤمنوا برسلي من

اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه. ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: يضلوكم عن طريق الحق، ويرتدوا عن دينكم، فترجعوا بالخسران المبين والهلاك المحقق، ولا خسران أعظم من أن تبدلوا الكفر بالإيمان. قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم.

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ بل للإضراب، أي: وإنهم ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم؛ بل الله ناصركم وحافظكم فأطيعوا أمره واستعينوا به وتوكلوا عليه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

وهو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره. ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، فقال:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ سنقذف في قلوب الذين كفروا أشد الفزع والخوف، والسبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين هو:

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ بسبب إشراكهم بالله، وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذه حاله في الدنيا، وأما في الآخرة، فأشد وأعظم ولهذا قال:

﴿وَمَا أَوْلَهُمُ النَّارُ﴾ ومستقرهم ومقامهم النار الذي يأوون إليها، وليس لهم عنها خروج.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وبئس مقام الظالمين نار جهنم، بسبب ظلمهم وعدوانهم فهم في الدنيا مرعوبون، وفي الآخرة معذبون، وقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منها: «نصرت بالرعب مسيرة شهر...».

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ولقد حقق الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم.

﴿إِذْ تَحْسَبُونَهُم بِأَذْنِهِ﴾ أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حتى إذا جبتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل وكنتم بهذا الفعل عوناً لأعدائكم عليكم.

﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ وعصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم. روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم: «لا تبرحوا أما كنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير»، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة فانهزم المشركون، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتل البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من بعد النصر. قال العلماء: المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل

النعمة، لقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تَحِبُّونَ﴾.

﴿مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل، لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد.

﴿وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: ثواب الله، وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله ابن جبير ثم استشهدوا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي: صفح وعفا عنكم مع العصيان، حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله ﷺ، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم، ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذو منٍّ ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال، ومن فضله على المؤمنين أنه لا يُقدَّر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصر رحمة.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار وتجدون في الهرب ولا تلتفتون إلى ما وراءكم، ولا يقف واحد منكم لآخر لما اعتراكم من الدهشة والخوف والرعب، ويعاتبهم بذلك.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ﴾ ومحمد ﷺ ثابت يناذكهم من ورائكم، يقول: «إِلَيَّ عباد الله، إِلَيَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرهه الجنة» وأنتم تمنعون في الفرار ولا تسمعون ولا تنظرون.

﴿فَأَنْتَبِكُمْ عَنْمَا بَغِمَ﴾ فجازاكم على فعلكم أن أنزل بكم ألمًا وضيقًا وغمًّا بسبب مخالفتكم للرسول ﷺ؛ غمًّا يتبع غمًّا، غمٌّ بفوات النصر، وفوات الغنيمة، وغم بانهازكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل. ولكن الله بلطفه وحسن تدبيره لعباده، جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرًا لهم، فقال:

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة.

﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الخوف والهزيمة والقتل والجراح. والغرض بيان الحكمة من الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم، وذلك من رحمته تعالى بهم.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والله خبير بجميع أعمالكم، لا يخفى عليه منها شيء؛ يعلم المخلص من غيره.

سورة آل عمران

الجزء الرابع

* ثم ذكر ﷺ ما كان من منته ورحمته

لعباده المؤمنين، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَّ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَّ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا تَوَلَّوْا وَمَا قِيلُوا يُجْعَلُ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّتْ لِمَعْفَرَةٍ مِن اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾

٧٠

بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وهذا امتنان منه تعالى

عليهم، والمعنى: ثم أرسل عليكم - يا معشر المسلمين - بعد ذلك الغم الشديد اطمئناناً وثقة في وعد الله، وكان من أثره نعاس غشي طائفة منهم، وإنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام. روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: «غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه». ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمانة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال:

﴿يَغْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون، أهل الإخلاص واليقين الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين، وأما الطائفة الأخرى.

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وخلاصها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعّد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمانة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: وكان عاقبة أمرهم أن أساءوا الظن برّبهم وبدينه وبنييه يظنون مثل ظن أهل الجاهلية، قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما أظهروا تلك الساعة أنها الفیصل، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ استفهام إنكاري، يقول بعضهم لبعض ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ قل - يا محمد - لأولئك المنافقين: الأمر كله بيد الله يصرفه كيف يشاء فهو الذي قدر خروجكم وما حدث لكم.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ يبطن المنافقون في أنفسهم ما لا يظهرون لك. ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال:

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾^ط أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة لم نخرج فلم نقتل، ولكن أكرهنا على الخروج، هذا تفسير لما يبطنونه، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول

الله ﷺ ورأي أصحابه، وتركية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^ط قل لهم -يا محمد- لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فقدر الله لا مناص منه ولا مفر فإن الآجال بيد الله.

﴿وَلَيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾^ط وليمتحن الله ما في قلوبكم من الشك والنفاق وضعف الإيمان.

﴿وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾^ط وليختبر ما في صدوركم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافقين للناس في الأقوال والأفعال.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^ط أي: عالم بالسرائر، مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر، لا يخفى عليه منها شيء. ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾^ط إن الذين فروا وانهزموا منكم يا أصحاب محمد من المعركة، يوم تقابل جمع المسلمين وجمع المشركين في غزوة أحد.

﴿إِنَّمَا أَسْأَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾^ط إنما أوقعهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم فلم يعاتبهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: واسع المغفرة للمذنبين الخطائين؛ بما يوفقه لهم من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة، حلیم لا يعجل العقوبة لمن عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.
 * ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ* وَلَئِنْ مُتْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره.

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر والنفاق إذا خرجوا في الأسفار يبحثون عن معاشهم وأرزاقهم.
 ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون:

﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى رداً عليهم:

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة وألمًا تستقر في نفوسهم، أما المؤمنون فإنهم يعلمون بقدر الله فيهدي الله قلوبهم ويخفف عنهم المصيبة.

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهو سبحانه يحيي من قدر له الحياة - وإن كان مسافرًا أو غازيًا، ويميت من انتهى أجله - إن كان مقيمًا، وهو رد على قولهم واعتقادهم أن القتال يقطع الآجال.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها. ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي: استشهدتم - أيها المؤمنون - في الحرب والجهاد في سبيل الله، أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: ذلك خير من البقاء في الدنيا، وجميع حطامها الفاني، والمقصود في الآية بيان مزية القتال أو الموت في سبيل الله وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة والرحمة.

﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ﴾ وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في الجهاد، فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم، فأثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته.

* لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة ذكر لمناقب النبي ﷺ ورفقه بأصحابه، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامره ﷺ فقد وسعهم ﷺ بخلقه

سورة آل عمران

الجزء الرابع

الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدّة وإنما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة، وعن المنة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث المهمة في تلك الغزوة. قال تعالى:

﴿١٥٩-١٦٤﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَمْشِ عَلَى الْقَيْمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * أَوَلَمَّْا أَصَابَكُم مَّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَمْشِ عَلَى الْقَيْمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ *.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ فبسبب رحمة من الله وتوفيقه للرفق والتلطف بهم أودعها الله في قلبك - يا محمد - كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك.

وقد خص الله ﷺ نبينا محمد ﷺ في القرآن بوصف الرحمة ولم يوصف به غيره من الأنبياء.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك، ولما كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: فتجاوز عنهم ولا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة «أحُد»، واطلب لهم من الله المغفرة، فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، فجمع بين العفو والإحسان، وشاورهم في جميع أمورك التي تحتاج إلى مشاورة، تطيباً لقلوبهم ورفعاً لأقدارهم ليقتردي بك الناس، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحد بعدك. قال الحسن: ما شاور قوم قط إلا هادوا لأرشد أمورهم. وكان ﷺ كثير المشاورة؛ تطيباً لقلوب أصحابه وليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

قال السعدي: المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فيه، فأمضه معتمداً على الله، وفوض أمرك إليه وثق به واستعنه، فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم بعد حصول العزم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ إن يمدكم الله بنصره ومعونته فلا يستطيع أحد أن يغلبكم ولو اجتمع عليكم من في أقطارها؛ لأنه تعالى قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: وإن يكلكم إلى أنفسكم ويترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليجأ وليعتمد المؤمنون، وفي الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وخص المؤمنون بهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه؛ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: ما صح ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء بأن يخون في الغنيمة غير ما اختصه الله به، والنفي هنا نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل؛ لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصح أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع لتنافي الغلول والنوبة. فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ...﴾ الآية، ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال:

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً ويأخذها يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك، فضيحة له على رؤوس الأشهاد.

﴿ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ثم تعطى جزاء ما عملت وافيّاً غير منقوص، وتنال جزاءها العادل دون زيادة، أو نقص دون ظلم، فلا يزداد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع.

﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه، ومن عصى الله وأكب على المعاصي فاستحق سخطه وباء بالخسران، هذان لا يستويان في حكم الله، وفي نظر عباد الله.

﴿وَمَا أَوْلَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيره ومرجه جهنم وبئست النار مستقراً له، ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت، فقال:

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أصحاب الجنة المتبعون لما يرضي الله متفاوتون في المنازل والدرجات عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله المهانة والعقاب الأليم.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله مطلع على أعمالهم لا تخفى عليه أعمال العباد، وسيجازيهم عليها. ثم ذكر تعالى المؤمنين بالمنة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: والله لقد أنعم الله على المؤمنين من العرب بأكبر النعم وأصلها، حين أرسل إليهم رسولا عربيا من جنسهم، يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، وعرفوا أمره وخبروا شأنه. وخص تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين؛ لأنهم هم المتنفعون ببعثته.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ هذه منة ثانية، أي: يقرأ عليهم الوحي المنزل بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك والذنوب ودنس الأعمال ومساوئ الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ويعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقات، وكانوا من العلماء الربانيين.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وإن الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر وغي وجهل، فنقلوا من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم.

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنفُسِكُمُ الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً﴾ أي: أو حين أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة يوم أحد فقتل منكم سبعون، فقال الله إنكم:

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلِيهَا﴾ قد أصبتم مثليها من المشركين في بدر، حيث قتلتم سبعين من كبارهم وأسرتهم سبعين.

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا﴾ أي: من أين هذا البلاء، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر، وموضع التقريع قولهم: ﴿أَنَّى هَٰذَا﴾ مع أنهم سبب الهزيمة.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: هذا الذي أصابكم هو من عند أنفسكم؛ بسبب معصيتكم أمر الرسول وحرصكم على جمع الغنائم وأخذها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

﴿وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما وقع بكم من جراح أو قتل يوم أحد، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فكان النصر للمؤمنين أولاً ثم للمشركين ثانياً، فذلك كله بقضاء الله وقدره.

سورة آل عمران

الجزء الرابع

وَمَا أَصْبَرُكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 (٣٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا بِهِمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ
 أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (٣٧) الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا
 لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ (٣٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَبَسْتَبِشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ
 مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٠) يَسْتَبِشِرُونَ
 بِبِعَمَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ (٤١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ
 الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ (٤٢)
 الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا الْكُفْرَ فَاخْشَوْهُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٤٣)

٧٢

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعلم وليرى أهل
 الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ
 تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾

وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أبي ابن
 سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد
 عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً
 من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون:
 تعالوا قاتلوا المشركين معنا نصره لدين
 الله وطلباً لمرضاته، أو ادفعوا بتكثيركم
 سوادنا. فاعتذر المنافقون وقالوا:

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا﴾

لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال.
 ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: بإظهارهم هذا القول
 وتركهم الخروج مع المؤمنين صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان.
 ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنهم يظهرون خلاف ما يضمرون
 وهذه خاصة المنافقين.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ بما يخفونه في صدورهم من النفاق والشرك.
 ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون هم الذين قعدوا
 وقالوا لإخوانهم في النسب لا في الدين الذين أصيبوا مع المسلمين في أحد.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم ما قتلوا هنالك.

﴿قُلْ فَأَدْرَأُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل - يا محمد - لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكي، وأن الموت آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

* لما بين سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً لتمييز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، بين في الآيات اللاحقة أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة، فذكر فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسليّة الأحياء عن قتلهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ ولا تظن - يا محمد - الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أَمْوَاتًا لا يحسون ولا يتنعمون.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بل قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم أحياء حياة برزخية في جوار ربهم متنعمون في جنان الخلد، يرزقون من نعيمها غدوًا وعشيًا، ولفظ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، والشهداء أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتركوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾» الآية. عن جابر بن عبد الله قال: لقيني رسول الله فقال يا جابر: «ما لي أراك منكسًا مهتمًا؟» قلت يا رسول الله: استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين، قال: «ألا أبشرك بما لقي الله ﷻ به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحًا - وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب - فقال له: يا عبد الله سلني أعطك، قال: يا رب: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب - تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال يا رب: فأبلغ من ورائي فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾».

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هم منعمون في الجنة مغتبطين بما هم فيه من النعمة والغبطة قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وهم يفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا لعلمهم أنهم سينالون من الخير الذي نالوه.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بأن لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا وحظوظها لأنهم في جنات النعيم في سرور كامل دائم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أكد استبشارهم ليزكر ما تعلق به من النعمة والفضل، والمعنى: يفرحون ويهنئ بعضهم بعضاً بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته، وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب؛ فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً. ثم قال تعالى:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي: الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد. وهذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة، وجعلوها الفيصلة، ولما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريههم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر أحداً، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو، وبذلوا غاية جهدهم - على ما بهم من جراح وشدائد - الأجر العظيم والثواب الجزيل.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين، فقالوا لهم: إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسهم وابتغوا لقاءهم، فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً وتصديقاً بوعد الله لهم ولم يشنهم ذلك عن عزمهم، فساروا إلى حيث شاء الله.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وقال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا، ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه - جل وعلا -.

سورة آل عمران

الجزء الرابع

﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾

أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا «من حمراء الأسد» إلى المدينة بنعمة السلامة والعافية وفضل الأجر والثواب والمنزلة العالية، وقد زادوا إيماناً و يقيناً، وأذلوا أعداء الله.

﴿لَمْ يَمَسَّ سَهُمْ سُوءٌ﴾

لم ينلهم مكروه أو أذى من القتل والقتال، وذلك أن المشركين لما سمعوا أن النبي ﷺ وأصحابه خرجوا إليهم ألقى الله الرعب في قلوبهم ورجعوا إلى مكة.

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

أي: نالوا رضوان الله الذي بطاعتهم له ولرسوله هو سبيل السعادة في الدارين، وهو سبحانه ذو إحسان عظيم عليهم وعلى غيرهم من العباد لا يقادر قدره ولا يبلغ مده.

﴿إِنَّمَا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

﴿إِنَّمَا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ إنما ذلكم القائل ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ بقصد تشييط العزائم هو الشيطان، يخوفكم أوليائه، وهم الكفار لترهبوهم وتخافوهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

فلا تخافوهم لأنهم ضعاف لا ناصر لهم، ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافون إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان نعيم بن

فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ سَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٨٠﴾ إِنَّمَا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٣٨١﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُبْسِدُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا لِّيُرِيدَ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطْلًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨٢﴾ إِنَّا الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَا نَكْفُرُ بِالْإِسْمِ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨٣﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تَعْلَىٰ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَلَّيْ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٣٨٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الْغَلِيظِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَقَابَلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ أَفْكَرُكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨٥﴾ وَلَا يَحْسِنَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ يُمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٣٨٦﴾

مسعود الأشجعي الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين، وإنما نسب إلى الشيطان؛ لأنه ناشئ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه، وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله. والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

* كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، ساعياً في دعوتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا ويطيعوا ويسلموا، فقال الله تعالى له ﷺ:

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تسليّة للنبي ﷺ، أي: لا تحزن ولا تتألم - يا محمد - لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر ويحرصون عليه بأقوالهم وأفعالهم، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ إنهم بكفركم لن يضرُوا الله شيئاً وإنما يضرُونَ أنفسهم بحرمانها حلاوة الإيمان وعظيم الثواب.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ يريد تعالى بحكمته ومشيتته ألا يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة؛ لأنهم انصرفوا عن دعوة الحق. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم. ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقررأً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل، لن يضرُوا الله بكفركم وارتدادهم، ولهم عذاب مؤلم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ ولا يظن الذين كفروا برهم، ونابدوا دينه، وحاربوا رسوله أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب، وإطالنا لأعمارهم وعدم استئصالنا لهم خير لهم ومحبة منا لهم. ﴿إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: كلا، إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم وعقوباتهم وعذابهم، ولهم في الآخرة عذاب يهينهم.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيميز له المؤمن من المنافق، والمعنى: لا يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يُظهر فيها وليه ويفضح بها عدوه، يعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميز بينهم يوم أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وما كان من حكمة الله أن يطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميز بينهم يوم أُحُد بالبأساء وجهاد عدوه.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار ويصطفي من رسله من يشاء فيطلعهم على بعض ما في ضمائر بعضهم بوحى منه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين.

﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فآمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب، وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحى من الله لا من جهة نفسه ﷺ.

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإن تصدقوا رسلى وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم.

لما بلغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لا يظن البخيل أن جمعه المال الذي أنعم الله به عليه، وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه ودنياه وعاجلهم وآجلهم.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ليس كما يظنون بل ذلك البخل شر لهم؛ لأن أموالهم ستزول عنهم ويبقى عليهم وبال البخل.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة، كما جاء في صحيح البخاري: «من آتاه الله

مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيتان فيأخذ بلهزمته - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا ﴿وَلَا يُحَسِّنَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية.

﴿وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه، وهو الباقي الدائم بعد فناء جميع خلقه فيموتون ويرثهم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع على أعمالكم جميعاً، وسيجازي كلاً على قدر استحقاقه.

* ثم يخبر تعالى عن قول المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١-١٨٤)
 ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود زعموا أن الله فقير، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: إن الله فقير يقترض منا كما قالوا:

سورة آل عمران

الجزء الرابع

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
عَهْدٌ بَيْنَنَا أَلَّا نُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِي فُلْتُمْ فَلَمَّ فُلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ مِّنْ صَادِقِينَ
﴿٤٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤١﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَلَمَّا تَوَفَّوَتْ أَجُوزَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعْنٌ غُورٌ ﴿٤٢﴾ لَسُبُّوا فِي
أُمُورِكُمْ وَلَفْسَكُكُمْ وَلَسْتُمْ مَعَهُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا
وَأَن تَقْصُرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

٧٤

﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وإنما

قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ، أي: إنه فقير على قول محمد؛ لأنه اقترض منا. عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدراس اليهود، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم وأخبارهم فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم

أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال - يا محمد: انظر إلى ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال يا رسول الله: إن عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزله الله رداً

على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تهديد ووعيد، أي: سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم من الإفك والفرية على الله، ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق بل تمرداً وعناداً، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة تقريراً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: ذلك العذاب الشديد بما اقترفته أيديكم من الجرائم في حياتكم الدنيا، وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق فيعذب بغير ذنب، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم، وعدل الله تعالى فيكم، ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي: هؤلاء اليهود حين دعوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة.

﴿أَلَا نُوْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة، وهي أن يقدم قرباناً فتزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه. عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب ابن الأشرف، ومالك ابن الصيف، وفنحاص بن

عازوراء وغيرهم - فقالوا: - يا محمد- تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ الآية.

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ قل لهم- يا محمد- توبيخاً وإظهاراً لكذبهم: قد جاءكم رسل من قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتهم.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم كذبتموهم وقتلتموهم، يعني زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بالله والتصديق برسله.

ثم قال تعالى مسلماً لرسوله ﷺ:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ لا يحزنك- يا محمد- تكذيب اليهود لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة، فهذه عادة الظالمين ودأب الكافرين.

﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: كذبوا رسلهم مع أنهم جاؤوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة.

﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كالنور والإنجيل.

* ثم زهد سبحانه في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميتة لا محالة.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: وبهذا تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ليحاسبهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فأجر المؤمن الثواب، وأجر الكافر العقاب.

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ فمن أكرمه ربه ونجاه، ونحي وأبعد عن النار وأدخل الجنة فقد حصل له الفوز المطلق، والنعيم المخلد. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحقق المغرور، والآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة.

﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: والله لتمتحنن وتختبرن في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض وما يحل بكم من جراح أو قتل وفقد للأحباب.

﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ ولينا لكم من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى

سورة آل عمران

الجزء الرابع

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَتَكْفُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا
آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَقَارِفَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي سُبُوحٍ وَأَقْعُودٍ
وَعَلَى جُنُودِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَسْعَغْنَا مُتَاوِيَاتِنَا لِلْإِيمَنِ أَنْ
ءَلْمُوهُمْ بِكُفْرٍ فَغَفَرْنَا رَبَّنَا فَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا إِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى
رُسُلِكَ وَلَا تَحْفَظِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

الكثير، مما يؤدي أسماعكم من الفاظ
الشرك والطعن في دينكم وهذا إخبار
منه - جل وعلا - للمؤمنين بأنه سينالهم
بلايا وأكدار من المشركين والفجار،
وأمر لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن
الجنة حفت بالمكاره، ولهذا قال:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تصبروا
-أيها المؤمنون- على المكاره
والابتلاء وتتقوا الله بلزوم طاعته
واجتناب معصيته في الأقوال والأعمال.
﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي:

الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها وينافس
فيها، لأنها مما أمر الله بها.

* ثم وبخ ﷺ أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، بقوله:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ
* لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اذكر - يا محمد - حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة وعلى النصارى في الإنجيل. ﴿لَتُبَيِّنَنَّاهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ لتظهرن ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، وليعملوا بهما، ويبينوا ما فيهما، قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فطرحوا ذلك العهد وتركوه وراء ظهورهم، مبالغة في النبذ والطرح، وتركوا العمل به، واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا من المأكول والمشارب.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي: بئس هذا الشراء، في تضييعهم الميثاق، وتبديلهم الكتاب.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: لا تظنن - يا محمد - الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدهم الناس، ويحبون أن يحمدهم الناس ويشنوا عليهم بما لم يفعلوا وهم المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب مؤلم. قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب؛ سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه، وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليثني عليه الناس ويحمدوه،

وطلب المدح من الخلق ومحبة والعقوبة على تركه، لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه - جل وعلا -.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه جميع ما في السموات والأرض، يصرفها كيف يشاء فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً؟ والآية ردّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو تعالى قادر على عقابهم.

* بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوجدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور؛ الكون الفسيح بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور القرآن العظيم، وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ

الَّتَارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *
رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى
رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: إن في خلق
السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع وعلى غير مثال سابق،
وفي تعاقب الليل والنهار على الدوام واختلافهما طولاً وقصراً.

﴿لَا يَتِلَّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي: علامات واضحة وبراهين عظيمة على
الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى
الكون بطريق التفكير والاستدلال لا كما تنظر البهائم. ثم وصف تعالى
أولى الأبواب، فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يذكرون الله في
جميع أحوالهم بألستهم وقلوبهم في حال القيام والقعود والاضطجاع،
فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لا طمئنان قلوبهم بذكره واستغراق
سرائرهم في مراقبته.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جاء الثناء عليهم بصيغة
الفعل المضارع ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ التي تدل على الاستمرار فالتفكير ديدنهم
وليس أمراً عارضاً. والمعنى: ويتدبرون في ملكوت السموات والأرض، في
خلقهما بهذا الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب
المبتدعات، قائلين:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: ما أوجدت هذا الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة.

﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ننزهك يا الله عن العبث وعمّا لا يليق بك، فأجرنا وارحمنا من عذاب جهنم ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور وأعظمها عندهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: يا ربنا نجنا من النار، فإن من أدخلته النار فقد أدلته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رؤوس الأشهاد.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وليس للمذنبين الظالمين، من أعوان وشفعاء يمنعونهم من عذاب الله، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ يا ربنا إننا سمعنا داعيًا ومناديًا - وهو نبيك محمد ﷺ - يدعو إلى الإيمان والتصديق بك.

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا﴾ أي: يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية، فصدقنا بذلك واتبعناه وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمئة الله عليهم، وتوسل إليه بذلك.

﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي: استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها، وامح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات، قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر.

﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ وألحقنا بالصالحين.

الجزء الرابع

سورة آل عمران

﴿رَبَّنَا وَعَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾

تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع، أي: أعطنا ما وعدتنا على السنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَلَا

تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، وهو إظهار للخضوع والضرعة.

﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فَإِنَّكَ

كريم لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة، وهذا دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على ذلك الدعاء.

* وبعد هذه الدعوات المباركة كان جود الجواد وكرم الكريم:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُضِيعُ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلٍ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُضِيعُ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ﴾ فأجاب الله دعاءهم بقوله: إني لا أبطل ولا أحبط أيها المؤمنون عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل، أو أنشى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُضِيعُ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلٍ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ١٩٥ لَّا يُعَذِّبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ١٩٦ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ١٩٧ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرِينَ ١٩٨ وَلَئِنْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِرُوا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْعُرُونَ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَكُمْ أَوْ تَعَادِيهِ ١٩٩ ثُمَّ قَلِيلًا أَوَّلَيْكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ٢٠٠ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٢٠١ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٢

موفراً، قال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم، وإنما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه، إذ من أجيب دعوته فقد رفعت درجته.

﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فإذا كنتم مشتركين في الأصل وهم إخوة في الدين، وقبول الأعمال والجزاء عليها سواء. عن أم سلمة قالت قلت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ الآية. ثم فصل تعالى لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له، فقال:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَرِهِمْ﴾ أي: الذين ألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار التي ولدوا فيها ونشأوا، وهجروا أوطانهم فارين بدينهم، رغبة في رضا الله تعالى.

﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ أي: تحملوا الأذى والشتم والضرب ونهب المال، من أجل دين الله وعبادته. وقاتلوا أعدائي، وقتلوا في سبيلي لأعلاء كلمة الدين، وجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: الموصوفون بما تقدم لأمحون ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي.

﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولأدخلهم جنات النعيم جزاء من عند الله على أعمالهم الصالحة.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ عنده سبحانه حسن الجزاء لمن عمل صالحاً، وهي الجنة.

* ثم نبّه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور، وبين أنه نعيم زائل ومتاع فان، والمقصود التسلية للمؤمنين عما يحصل عليه الذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في الدنيا بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، وهذه الآيات متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين، قال تعالى:

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ * مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٦-١٩٨)

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ لا يخدعك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والأرباح.

﴿مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: إنما يتنعمون بذلك قليلاً وبرهة من الزمن، ليس له ثواب ولا بقاء، بل هو متاع قليل، وبُليغة فانية، ومتعة زائلة، ثم يزول هذا النعيم كله عنهم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس الفراش والقرار نار جهنم.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وأما المتقون لربهم، المؤمنون به، فجمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها، لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ضيافة وكرامة من عند الله، وما عند الله من الثواب والكرامة والكثير الدائم أعظم للأخيار الأبرار، وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً وعطاء جسيماً، وفوزاً دائماً، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل.

* ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب ممن وفقهم للخير والرشاد، فقال:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن، وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي وأتباعه ولهذا لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً صار نافعاً، فأحدث لهم خضوعاً وخشوعاً.

﴿خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين متذللين متواضعين لله.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يحرفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرض من الدنيا خسيس كما فعل الأحرار والرهبان.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثواب عظيم عنده يوم يلقونه، فيوفيههم إياه غير منقوص.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع حسابه لنفوذ علمه بجميع المعلومات، يعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب. قال ابن عباس والحسن: نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي»، فقال بعضهم لبعض: يأمر أن نصلي على عالج من علوج الحبشة فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال الراغب: النفس مولعة بحب العاجل.

ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين، وفيها الحض على طريق الفلاح والفوز والنجاح، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد.

﴿وَصَابِرُوا﴾ أي: غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب، واستمروا على ذلك على الدوام.

﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا على جهاد عدوي وعدوكم، وأقيموا في الثغور مستعدين للجهاد والغزو.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وخافوا الله في جميع أحوالكم فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

وقد جمعت الآية صفات الفلاح وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلاص بها أو ببعضها.

تم تفسير سورة آل عمران

والحمد لله

تفسير سورة النساء
وهي مكية

* سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور مهمة تتعلق بالمرأة، والبيت،

والأسرة، والدولة، والمجتمع، وركزت على حقوق الضعفة كالأيتام والنساء والمستضعفين في الأرض، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت «سورة النساء» لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

افتتح الله - جل ثناؤه - سورة النساء ب خطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، فقال سبحانه:



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خافوا الله والتزموا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فهو الذي أنشأكم من أصل واحد، وهو نفس واحدة هي أبيكم آدم عليه السلام وفي الإخبار بأن خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد، ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، وفيه تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فينبغي وبينهم أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب علاقة.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي: نشر وفرق في أنحاء الأرض من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكورا وإناثا.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ﴾ وخافوا وراقبوا الله الذي يناشد بعضكم بعضا به حيث يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها؛ فإنها مما أمر الله به أن يوصل.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حفيظا مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم.

وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به.

* تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام وبخاصة اليتيمات في حجب الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة، وكل هذا من رحمة الله ﷻ حيث أوصى بهؤلاء، قال تعالى:

﴿وَعَاثُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَعَاثُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

﴿وَعَاثُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ وهذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى، والخطاب للأولياء والأوصياء، أي: أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ، وكنتم عليهم أوصياء أموالهم كاملة موفورة إذا بلغوا ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا ولا تأخذوا الجيد من مال اليتامى وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم كما كان يصنع أهل الجاهلية.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم،

لتحتالوا بذلك على أكل أموالهم، وخص الأكل بالذكر؛ لأنه أكثر ما يكون، وأعم ما يكون من الانتفاعات.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ أي: إن من تجرأ على أكلها فقد ارتكب إثماً عظيماً، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية؛ لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، وفي الآيات الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار. ثم أرشد تعالى إلى ترك الزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل، فقال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ وإذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وعلم وخاف ألا يعطيها مهر مثلها لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليكم.

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي: انكحوا ما استحسنتم من النساء سواهن من ذوات الدين، والمال والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً ولا يزيد عليها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإن خشيتهم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين، إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات.

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ وذلك الاقتصار على الواحدة، أو على ملك اليمين، أقرب ألا تميلوا وتجوروا.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحثهم على إيتاء ذلك بطيب نفس. وتعرضت الآيات لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها؛ كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة، قال تعالى:

﴿وَعَاثُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: أعطوا النساء مهورهن عطية واجبة وفريضة لازمة عن طيب نفس منكم، فلا تماطلوهن أو تبخسوا منه شيئاً، وسمي صدقة؛ لأن بذله دليل على صدق الطالب للمرأة.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي: فإن طابت نفوسهن بهبة شيء من الصداق فوهبته لكم وسمحن لكم عن رضا واختيار.

﴿فَكُلُّوهُ هَنِيئًا مَّرِيَّةً﴾ فخذوا ذلك الشيء الموهوب وتصرفوا فيه حلالاً طيباً هنيئاً حين الأكل، ومريئاً بعد الأكل، فالمريء محمود العاقبة. والهنيء سهل المساغ، وهذه عبارة عن المبالغة في الإباحة وإزالة التبعة. قال ابن عباس: إذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنيء مريء كما قال الله.

* ثم خاطب ﷺ الأولياء، فقال:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ * وَأَبْتَلُوا الَّتِي تَمَيَّ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي: لا تعطوا أيها الأولياء السفهاء، جمع «سفيه» وهو الذي يفسد المال بسوء تدبيره، ولا يحسن التصرف فيه، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، أو لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. والمعنى: لا تعطوا اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها في غير وجهها خشية إفسادها وإتلافها، وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء؛ لأنهم قوامها ومدبروها، وإشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلون في أموالهم من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: وأنفقوا عليهم منها واكسوهم، وقولوا لهم قولاً ليناً من الكلام الطيب، كقولكم إذا رشدتم سلمنا إليكم أموالكم.

﴿وَابْتَلُوا الَّتِي تَمْنَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ اختبروا وامتحانوا اليتامى، في عقولهم وأديانهم وحفظهم أموالهم، حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ فإن أبصرتهم ورأيتم منهم صلاحاً في دينهم، وقدرة على حسن التصرف في أموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم دون تأخير.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي: يا معشر الأولياء: لا تسرعوا في إنفاقها وتبذروها قائلين نفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فيأخذوها من أيدينا.

﴿وَمَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ومن كان منكم صاحب مال أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته، واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ومن كان فقيراً محتاجاً إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهدده، فليأخذ بقدر حاجته الضرورية، وبقدر أجرة عمله، وقيل: هو ما سد الجوعة ووارى العورة.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم، بعد بلوغهم الرشد، فأشهدوا على ذلك ضماناً لوصول حقهم كاملاً إليهم، ولئلا ينكروا ذلك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ وكفى بالله محاسباً ورقباً وشاهداً عليكم.

* لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصله بأحكام الموارث وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيدان بأصالتهن، ودفع ما كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم؛ حيث كانوا لا يورثون للضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال، والسلب والنهب، فأراد الرب الرحيم الحكيم، أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسائهم، وأقويائهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمر مجملاً، لتوطن على ذلك النفوس، فقال تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وإذا

سورة النساء

الجزء الرابع

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ۝ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
۝ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ۝
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ
الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۝ أَي: للذكور
صغاراً وكباراً حظ وقسط من تركه

٧٨

الميت، كما للبنات والنساء حظ وقسط أيضاً، الجميع فيه سواء، يستوون في أصل الوراثه وإن تفاوتوا في قدرها.

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة، حقاً ثابتاً فرضه الله وأوجهه بشرعه العادل وكتابه المبين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ وإذا حضر قسمة الميراث الذي أتاكم من غير تعب ولا كد الفقراء من قرابة الميت ممن لا حق لهم في التركة، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين الذين لا مال لهم، فأعطوهم شيئاً من هذا المال تطيباً لخاطرهم وجبراً لقلوبهم على وجه الاستحباب قبل تقسيم التركة على أصحابها.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قولاً حسناً جميلاً غير فاحش ولا قبيح وليس فيه من ولا أذى.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في الأوصياء، أي: تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم، وعامل اليتامى الذين في حجرك بمثل ما تريد أن يعامل أبناءك بعد فقدك. والخشية أشد الخوف، ولا تكون إلا مع العلم.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فليراقبوا الله في أمر اليتامى، وذلك بحفظ أموالهم، وحسن تربيتهم، ودفع الأذى عنهم وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان. ثم حذر تعالى من أكل أموال اليتامى، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ إن الذين يأكلونها حراماً دون حق.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: ما يأكلون في الحقيقة إلا ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر.

* لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام الموارث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال، فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات، في

تفصيل دقيق عادل، يكفل العدالة ويحقق المساواة. وفي الآيات ما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم، قال تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَى بِهَِا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم، فإذا مات أحد منكم وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً، فميراثه كله لهم، ثم ذكر كيفية إرثهم. روي أن امرأة سعد بن الربيع جاءت رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما سعد معك بأحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا بمال، فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك [رواه أبو داود والترمذي]. ثم قال تعالى:

﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للابن من الميراث مثل نصيب البنتين إذا لم يكن هناك وارث غيرهم.

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فإن ترك بنات فقط، اثنتين فأكثر، فلبنتين فأكثر ثلثا التركة.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة.

وبعد أن ذكر تعالى ميراث الأولاد ذكر ميراث الأبوين؛ لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل، فقال تعالى:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ للأب السدس، وللأم السدس.
﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: من تركة الميت والمعنى: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت.

﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ إن وجد للميت ابن أو بنت؛ لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى، ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ﴾ فإن لم يوجد للميت أولاد كان الوارث أبواه فقط، أو معهما أحد الزوجين.

﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فللأم ثلث المال، أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين، والباقي للأب.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر، فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقي للأب، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ديونه، فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك وقدم الوصية مع أنها مؤخره عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ وَلَهُنَّ نِصْفُ مَا تَرَكَنَّ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَلُ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةُ مَوْلَى اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

﴿عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: إنه تعالى تولى قسمة الموارث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوافر المنفعة، ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة، ولهذا أتبعه بقوله:

﴿إِن اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي:

إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه، حكيم فيما شرع وفرض.

* ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة، فقال:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةُ مَوْلَى اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ولكم أيها الأزواج نصف ما ترك أزواجكم من المال بعد وفاتهن إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم وذكر التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب والمؤمن والكافر لا تشاكل بينها ولا تناسب فلا يقع بينهما التوارث.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ فإذا كان لهن ولد، فلكم الربع من ميراثهن، وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: من بعد الوصية، وقضاء الدين. ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ ولزوجاتكم واحدة فأكثر، الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهم، أو من غيرهن. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أي: فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفى.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ وإن كان الميت يورث كلاله، أي لا والد له، ولا ولد، وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع. ﴿أَوْ امْرَأَةً﴾ عطف على رجل، والمعنى: أو امرأة تورث كلاله. ﴿وَلَهُوَ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ وللمورث أخ، أو أخت من أم، فللأخ من الأم السدس، وللأخت للأم السدس أيضاً.

﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنَ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أي: فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء.

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي: تقسم التركة بعد قضاء ديون الميت، وإنفاذ وصيته إن كان قد أوصى بشيء لا ضرر فيه على الورثة، أي في حدود الوصية بالثلث، لقوله ﷻ: «الثلث والثلث كثير».

﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أوصاكم الله بذلك وصية نافعة لكم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عالم بما شرع، حلیم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره.

* وبعد أن قرر قسمة الميراث بنص الآيات، حذر تعالى من تجاوزها أو التعدي عليها، فقال سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: تلك الأحكام التي شرعها الله في اليتامى والنساء والموارث شرائع الله التي حدها لعباده ليعملوا بها؛ ولا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديها.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ومن يطع أمر الله فيما حكم، وأمر رسوله فيما بين، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار بمياهها العذبة.

﴿خَلِيدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، وذلك الثواب هو الفلاح العظيم.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ومن يعص الله ورسوله بإنكاره لأحكام الله، وتجاوزه ما شرعه الله لعباده بتغييرها، أو تعطيل العمل بها، ويتجاوز ما حده تعالى له من الطاعات.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً، وهنا لطيفة في قول الله تعالى عن أهل النار:

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾، وقال عن أهل الجنة ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ والحكمة في ذلك: أن أهل الجنة يتنعمون باجتماع بعضهم إلى بعض، ولهذا قال عن أهل النار: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ فقد ورد أن كل واحد منهم في تابوت لا يرى أحداً ولا يراه أحد، اللهم إلا على سبيل التفرغ، فهذا هو السر والعلم عند الله.

﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وله عذاب شديد، مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال. * لما بين سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، ووجوب الإحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهم مع الرجل، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف، وبين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، قال تعالى:

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ * وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

سورة النساء

الجزء الرابع

وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهَا
 أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ
 حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ١٥
 وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا
 فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا حَنِيمًا ١٦
 إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
 ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
 قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ يَا رَبُّ وَلَا الذَّيْرَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
 أُولَئِكَ أَعَذَّبْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْيَسَارِ ١٨ يَأْتِيَنَّكَ
 الْيَهُودُ لِيَكْلَأَكُمْ أَنْ تَرَوْا النِّسَاءَ كَرِهْنَا وَلَا نَمُوتُ
 لِنَدْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أَكْتَبْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّكَ
 الْفَاحِشَةُ ١٩ مُبَيَّنَّةٌ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
 أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبِيرًا ٢٠

٨٠

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهَا أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾

أي: اللواتي يزني من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنى أربعة رجال عدول من المسلمين، ووصف الزنا بالفاحشة لشناعتها وقبحها.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فإن ثبتت بالشهود جريمتهم، فاحبسوهن في البيوت.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: احبسوهن فيها إلى

الموت، أو حتى يجعل الله لهن مخلصاً بما يشرعه من الأحكام. قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب.

﴿فَإِذَا دُهِمَا﴾ بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال.

﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فإن تابا عن الفاحشة، وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما. قيل خص الحبس في البيت بالمرأة، وخص

الإيذاء بالرجل؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: مبالغاً في قبول التوبة، واسع الرحمة والإحسان، الذي من إحسانه: أن وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عما صدر منهم، وفي قوله:

﴿تَوَّابًا﴾: صيغة مبالغة. وذلك لكثرة توبته وكثرة من يتوب عليهم، فالذين يتوب الله عليهم لا يحصون، فلهذا عبر بصيغة المبالغة، وتوبة الله على العبد نوعان: توبة قبل فعل التوبة، وتوبة بعدها، فالتوبة التي قبل فعل التوبة معناها: التوفيق للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] والتوبة التي بعد التوبة: هي قبول التوبة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

* بعد أن أخبر ﷺ أن توبته على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، أخبر تعالى أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا، لمن عمل السوء، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية بجهل منه لعاقبتها، ثم ندم وأناب؛ فكل عاص لله خاطئاً أو متعمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي به الله فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ ثم يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقبل الله توبتهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ عليماً بخلقه، حكيماً في شرعه وتدبيره وتقديره، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ﴾ وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب، فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة ولا تنفع صاحبها، وفي الحديث:

«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [رواه الترمذي].

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: ولا تقبل توبة الذين يموتون وهم جاحدون، منكرون لوحداية الله ورسالة رسوله محمد ﷺ فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين.

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أي: أولئك المصرون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يموتون وهم كفار، هيانا وأعدنا لهم عذاباً مؤلماً.

* وتناولت السورة الكريمة نفي الظلم عن الزوجات، وفيها تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسمية وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، بل هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب، وكانوا في الجاهلية إذا

مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَعَاطَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَنَّا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَعَاطَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَنَّا وَإِنَّمَا مُبِينًا ٥ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٦ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ٧ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَبْ تَحْمَعُونَ بَنَاتِ الْأَخْتَنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا^ص﴾ أي: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالميتات، ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج، أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموهن لهن من الصداق ونحوه.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي: لا يكون العضل إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنى، والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها. قال ابن عباس: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان؛ فلكن حينئذ إمساكن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن.

﴿وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

أي: صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول؛ والمعاملة بالإحسان والتكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق وقيل هي: الإجمال في القول والمبيت والنفقة.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فإن كرهتم صحبتهم لسبب من الأسباب الدنيوية بقبح أو سوء خلق، فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدارين، وربما أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقر به أعينكم، أو يعطفه الله عليها، أو يناله الأجر العظيم على صبره، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير، وفي الحديث: «لا يفرك أي لا يبغض مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» [رواه مسلم].

ثم حذر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها.

﴿وَعَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهرًا كبيراً يبلغ قنطاراً، فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر. ﴿أَتَأْخُذُونََهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إنكاري، تأخذونه باطلاً وظلماً؟ وافتراءً واضحاً.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ استفهام للتعجب والإنكار، أي: كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية؟ ﴿وَأَخْذُنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وكذلك أخذ الله على الأزواج عهداً وثيقاً مؤكداً هو عقد النكاح، قال مجاهد: الميثاق الغليظ عقدة النكاح، وفي الحديث: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» [رواه مسلم].

* لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج، وحذر من إيذائهن أو أكل مهورهن، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع، قال تعالى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوج آباؤكم، لكن ما سبق فقد عفا الله عنه، لما توفي

سورة النساء

الجزء الخامس

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ لَكُمْ مَآوِلَهُ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ تُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
وَمِنْهُنَّ فَنَاقُوهُنَّ أَجُورُهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
تَرَضَيْتُمْ بِهِ، مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ١٠ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ
مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَهُنَّ أَجُورُهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ الْمُحْصَنَاتُ غَيْرُ مُسْلِفَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ
مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
١١ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي
مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُطَهِّرَ عَلَيْكُمُ اللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ ١٢

أبو قيس بن الأسلت وكان من صالحى
الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه
فقال: إني أعدك ولداً ولكني آتي رسول
الله ﷺ أستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله:
﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ
النِّسَاءِ﴾ الآية.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ فإن
نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح
والشناعة، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة
والبشاعة، إذ كيف يليق بالإنسان أن
يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته
وهي مثل أمه؟

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بس ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً لمن سلكه؛
لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتزهر عنها والبراءة منها،
فوصف الله ﷻ نكاح ما نكح الآباء بثلاثة أوصاف: أنه فاحشة، وأنه مقت،
وأنه سبيل سيء.

* ثم بين تعالى المحرمات من النساء، فقال:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ
مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ
تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم،
ويشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ويشمل بنات الأولاد، وإن نزلن.

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ أي: شقيقة كانت أو لأب أو لأم.

﴿وَعَمَمَتُكُمْ﴾ أي: أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم.

﴿وَحَلَائِلُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أخوات أمهاتكم وجداتكم،
وبنات الأخ وبنات الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات
بالنسب وهن كما تقدم الأمهات، والبنات، والأخوات، والعلمات،
والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع، وقد نزل الله الرضاغة منزلة
النسب حتى سمي المرضعة أمًّا للرضيع، فقال:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾ أي: كما يحرم
عليك أمهاتكم اللاتي ولدنكم، كذلك يحرم عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم،
وكذلك الأخوات من الرضاع، ولم تذكر الآية من الحرمات بالرضاع سوى

الأمهات والأخوات، وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات من الرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [رواه البخاري].

ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة، فقال:

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل؛ لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم.

﴿وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي: بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن، وذكر الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب؛ لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع.

﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع، أي: من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر، قاله ابن عباس، فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وطلقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وحرّم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، بخلاف من تبنيتموهم فلکم نكاح حلائلهم.

﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وحرّم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه، ولا يجوز كذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كما جاء في السنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: غفوراً لما سلف، رحيماً بالعباد فلا يكلفهم ما لا يطيقون.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: وحرّم عليكم
نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي، فيحل لكم وطؤهن
بعد الاستبراء ولو كان لهن أزواج في دار الحرب؛ لأن بالسبي تنقطع عصمة
الكافر، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج،
فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي ﷺ فنزلت:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية قال:
فاستحللناهن.

﴿كِتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا فرض الله عليكم وكتابه بتحريم نكاح
هؤلاء، فالزموه، واهتدوا به.

﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وأحل لكم نكاح ما سواهن.
﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: إرادة أن تطلبوا
النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين.
﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فما تلذذتم به من
النساء بالنكاح، فآتوهن مهورهن فريضة فرضها الله عليكم ليست بمنزلة
التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده، ثم قال تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: لا إثم
عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن وطيب نفس منهن، قال ابن كثير:
أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا
عليها في ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بمصالح العباد، حكيماً فيما شرع لهم من الأحكام والشرائع وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرُ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَدْحَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة على الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات. ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر.

﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن قرب أمة خير من حرة، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء، فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب.

﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فتزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن.
 ﴿وَعَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وادفعوا لهن مهرهن عن طيب نفس
 ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، ولكن لا يجوز
 نكاح الإماء إلا إذا كن:

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرُ مُسْلِفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ أي: عفيفات، غير
 مجاهرات بالزنى، ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن. قال ابن عباس: الخدن
 هو الصديق للمرأة يزني بها سراً، فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها
 وما بطن.

﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ
 الْعَذَابِ﴾ فإذا أحصن بالزواج ثم زين فعليهن نصف ما على الحرائر من
 عقوبة الزنى.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإماء لمن خاف
 على نفسه الوقوع في الزنى، والصبر عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل.
 ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: صبركم وتعففكم عن نكاحهن أفضل
 لئلا يصير الولد رقيقاً.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واسع المغفرة، عظيم الرحمة إذ أذن لكم في
 نكاحهن عند العجز عن نكاح الحرائر، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز
 عنه، وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله ﷻ تقتضي الإحسان إلى الخلق
 ودفع الضرر عنهم، والغفور يستر المحذور، والرحيم يكشف المحذور.

* يخبر تعالى بمتته العظيمة،
ومنتحه الجسيمة، وحسن تربيته
لعباده المؤمنين، وسهولة دينه ويسر
شريعته، فقال:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ
وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا
عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ
وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: يريد
الله بهذه التشريعات أن يوضح لكم معالم دينكم ومصالح أموركم، ويرشدكم
إلى طرائق الأنبياء والصالحين في الحلال والحرام لتقتدوا بهم.
﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم.
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأحوال العباد وما يصلح شأنهم، حكيم في
تشريعه لهم وما دبر من أمورهم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرره ليؤكد سعة رحمته تعالى على
العباد، أي: يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام،
ويريد توبة العبد ليتوب عليه.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٨﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٩﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَأَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَّبِعُكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْسُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا
وُطْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣١﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مِنْهُنَّ عَلَيْنَا فَنَقِصْ
عَنْكُمْ سِتْرَ إِيكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُبْدُونَ لَهُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الرِّجَالِ
نُصِيبْ وَمَا أَكْتَسَبُوا وَالنِّسَاءِ نُصِيبْ وَمَا أَكْتَسَبْنَ
وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْتَى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ
نُصِيبُهُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٤﴾

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ ويريد الذين ينقادون لشهواتهم وملذاتهم أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتنحرفوا عن الدين انحرافاً كبيراً، وتكونوا فسقة فجرة مثلهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع.

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا على مشاق الطاعات، فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته.

* ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يحل لكم أن يأكل بعضكم أموال بعض بغير حق، وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك، ثم إنه لما حرم أكل الأموال بالباطل، أباح لهم أكلها بالطرق المباحة، فقال:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ إلا ما كان بطريق شرعي وكسب حلال كالتجارة التي أحلها الله، ونص على التجارة دون سائر أنواع المعاولات لكونها أكثرها وأغلبها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار، وذلك من رحمته تعالى بكم أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: ومن يرتكب ما نهى الله عنه من أخذ المال الحرام معتدياً ظالماً لا جهلاً ولا نسياناً، فسوف يدخله الله في الآخرة ناراً عظيمة يحترق فيها.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: هيناً يسيراً لا عسر فيه؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء.

﴿إِنْ تَجْنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: إن تركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عنها كالإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس بغير الحق، وغير ذلك، نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين.

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصوم رمضان. عن ابن عباس رضي الله عنه: ثمان آيات في سورة

النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾. ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾. ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾.

* لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خص الله به كلاً من الجنسين فلا تتمنى النساء خصائص الرجال، التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال، تمنياً مجرداً؛ لأن هذا هو الحسد بعينه، ولأنه سبب للبغضاء والشحناء، قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من المواهب والأرزاق وغير ذلك، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته وحكمته البالغة؛ ولأنه يؤدي إلى التحاسد والتباغض، قال الزمخشري: نهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد. عن مجاهد قال: قالت أم سلمة يا رسول الله: يغزو

الرجال ولا تغزو وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ﴾ لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار، كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وسلوا الله من فضله ورزقه بدلاً من التمني لما فيه من دواعي الحسد، واسألوا الجواد يعطكم فإنه كريم وهاب خزائنه لا تنفذ، قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وهو عالم الغيب والشهادة، أعلم بما يصلح عباده فيما قسمه لهم، ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات.

* لما نهى الله سبحانه عن تمني ما فضل الله به بعضاً على بعض، ومنه تفضيل الرجال على النساء في الميراث، قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ولكل إنسان جعلنا ورثة يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ والذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ. قال الحسن: كان الرجل يحالف

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ
حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ٢٤ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا
فَاتَّعِظُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرًا ٢٥ وَأَعِدُوا لِلَّهِ وَأَلْزَمُوا الْكَيْدَ الْيَهُودَ سَبْعًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَالنَّسَبِ وَالسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَأَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ٢٦ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٢٧

الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال ابن عباس: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا﴾ نسخت.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

مطلعاً على كل شيء بعلمه لجميع الأمور وسيجازيكم عليه.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتى تكون بين الراعي ورعيته، وأن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه، فقال:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: الرجال قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والكسوة والمسكن والتوجيه والرعاية كما يقوم الولاة على الرعية. ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ بسبب ما منحه الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب، قال المفسرون: والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير، ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك. روي أن سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص منه» فنزلت: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير».

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطَتْ حِيفَظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهم قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن مستقيمات على شرعه، قائمات بما عليهن من حقوق، ويحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير، كما أنهم حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره.

﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ﴾ هذا خطاب للأزواج، هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات، أي: واللاتي يتكبرن ويتعاليين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن في التأديب سبل الإصلاح الأسهل فالأسهل.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: فخوفوهن الله بطريق النصيح والإرشاد، وبالكلمة الطيبة، وبيان حكم الله في طاعة الزوج من الترهيب من معصيته. والوعظ: ما خُتم بترغيب وترهيب، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإن لم ينجح الوعظ والتذكير؛ فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن. قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن لا يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فإن لم يردعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح لا ضرر فيه، وهو ضرب تأديب وإصلاح لا ضرب انتقام وتعسف. قال عطاء: ضرباً بالسواك.

ذكر ﷺ الوعظ والهجر والضرب، والرابعة لم يذكرها تعالى لأنها مكروهة عنده وهي الطلاق.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فإن أطعن أمركم وترككن النشوز فاحذروا ظلمهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذاتهن ومعاقبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. وفي هذا تأديب وتوجيه للمسلمين في كيفية تأديب نساءنا؛ وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح، ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها، وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين.

* لما ذكر ﷺ ثلاث مراحل في علاج الزوجة وإصلاح حالها، ذكر في الآيات اللاحقة بعث حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة، قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾
أي: وإن تفاقم الخلاف بين الزوجين، وخشيتم يا أولياء الزوجين مخالفة وعداوة بين الزوجين فأرسلوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة، وإنما كان بعث الحكمين من أهلها؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصالح واحفظ لأسرارهما الخاصة، ونفوس الزوجين أسكن إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب والبغض، وإرادة الصلح والفرقة، ويفعلان ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوق الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال:

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ إن قصد الحكمين إصلاح ذات البين وكانت نيتهم صحيحة وقلوبهم ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة.
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾
عليماً بأحوال العباد لا يخفى عليه شيء من أمرهم، حكيماً في تشريعه لهم، خير بما تنطوي عليه نفوسهم.

* يأمر تعالى في الآيات عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في

جميع العبادات الظاهرة والباطنة. ثم انتقلت الآيات من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان، قال تعالى:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ واعبدوا الله وانقادوا له وحده، وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء لا صنماً، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً، وإحساناً وإكراماً. وللإحسان ضدان: الإساءة، وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: وأحسنوا إلى الأقارب عامة، وإلى اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين خاصة وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هو الجار القريب، فله عليك حق الجوار، وحق القرابة. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هو الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: صاحب مطلقاً، فإنه يشمل صاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة.

﴿وَأَنِّي السَّبِيلُ﴾ وهو المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله.
 ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وهم المماليك من العبيد والإماء، أحسنوا إليهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: متكبراً في نفسه يأنف
 عن أقاربه وجيرانه، فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم،
 والاختيال يكون بالفعل، والفخر يكون باللسان، وهذا آية جامعة جاءت حثاً
 على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن
 كثير من مواضع البلغاء، ونصائح الحكماء. وقد ختم تعالى هذه الآية بهذه
 الجملة؛ لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله، وعن هذه الوصايا النافعة،
 فالغالب عليه أن فيه اختيلاً، وفيه فخراً واستنكافاً واستكباراً، قال بعض
 السلف: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً، وتلا ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
 يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

* ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله، فقال:

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ * وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 رِشَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ
 قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا
 رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا *.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الذين يمنعون ما أوجب الله
 عليهم من الإنفاق والعطاء في سبيل الله، ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ۖ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا جِئْتُمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا رَسُولَ لَوْ تَسْوَى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهِ حَدِيثًا ۖ تَبَايَعُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ
سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تُجِدُوا الْمَاءَ فَامْسَحُوا بِأَيْدِيكُمْ
فَمِنْهُمَا أُصْبِحُوا طَيِّبَاتٍ أَوْ كَفَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ صَالِحُونَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ۖ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُبَرِّدُونَ أَنْ تَصَلُّوا السَّبِيلَ ۖ

بأقوالهم وأفعالهم، وهذا غاية اللؤم ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع. والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات، وهي مع ذلك عامة.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويخفون ما عندهم من المال والغنى، ويخفون فضله وعطاءه، ويخلون بالصدقة، فالبخيل جحود لنعمة الله لا تظهر عليه ولا تبين، لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه

وبذله؛ بل يتظاهر بالمسكنة لئلا يتطلع أهل الحاجة إلى ما ينتفعون به منهم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وهيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم، وبعد أن ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، ولا يريدون بذلك وجه الله، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ واعتدنا هذا العذاب كذلك للذين ينفقون أموالهم رياء وسمعة ليروهم الناس ويمدحونهم ويعظمونهم لا ابتغاء وجه الله.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولا يصدقون بالله اعتقاداً وعملاً، ولا باليوم الآخر، وليس إنفاقهم صادراً عن ذلك، والآية في المنافقين.

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: ومن كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره، فساء هذا القرين والصاحب.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، وماذا يضيرهم وأي تبعة ومشقة عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله وقد أعطاهم ومنّ عليهم، وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال، فقال:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم بالعقاب، أي سيجازيهم بما عملوا، وسيحاسبهم على ذلك.

* يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فكيف إذا جئنا من كلّ أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إن الله تعالى لا يبخس ولا ينقص أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة، ذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير.

﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا﴾ وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمها ويكثرها لصاحبها ويجعلها أضعافاً كثيرة بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة، وكذلك التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير، وما وصفه الله بالعظيم فمن يعرف مقداره، مع أنه سمى متاع الدنيا قليلاً، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى أجراً عظيماً فمن يقدر قدره.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أنه ﷺ لا يظلم مثقال ذرة، ذكر كيف يكون حال الناس يوم القيامة حين تأتي من كل أمة نبيا يشهد عليها، بما عملت ونأتي بك يا محمد شهيداً على أمتك، تشهد على أمتك وعلى الرسل أنهم بلغوا أممهم رسالات ربهم، والاستفهام هنا للتوبيخ والتفريع.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ أي: في ذلك اليوم العصيب، يوم القيامة يتمنى الفجار الذين جحدوا وحادانية الله وعصوا رسوله.

﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون في الأرض ثم تسوى بهم كما تسوى بالموتى، أو لو تشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً؛ حتى لا يبعثوا وذلك بما يرون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يستطيعون أن يخفوا عن الله حديثًا، بل أسرارهم معروضة عليه، وأحاديثهم فيما بينهم معلومة لديه.

* ثم أمر تعالى باجتنب الصلاة في حال السكر والجنابة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ يا أيها الذين صدقوا: لا تصلوا في حالة السكر؛ لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاة سبحانه وتعالى، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب، أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ وإن كنتم مرضى لا تقدرون معه على استعمال الماء، أو مسافرين وأنتم محدثون، أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثًا أصغر ولم تجدوا الماء.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ أو جامعتم النساء، فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به، وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيخرج بذلك.

* لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً.. أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة، وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعادنا الله منها، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم، أي: ألم تنظريا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود. روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف أحد أحبار اليهود إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد؟ فقال: اعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان:

وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٤﴾
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا لِيَحْمِلُوا أَسْمَهُنَّ أَتَسْمَعُونَ مَوَاضِعَهُ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَا أَلَيْسَ تَبَصِيرًا
 وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَّوْهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا لِقِيلًا ﴿٤٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُسَ وُجُوهَهُمْ فَزُدُّهَا
 عَلَى أَذْيَارِهَا أَوَلَمْ نَعْلَمْ كَمَا الْعَمَاءُ أَصْحَابُ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٦﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونََ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
 ﴿٤٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ
 وَلَا يُلَظْمُونَ قِيلًا ﴿٤٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالظَّالِعُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٠﴾

نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونفري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم، فقال: دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدي سبيلاً مما هو عليه، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ الآية.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ﴾ أي: يختارون ويحبون ويفضلون الضلالة على الهدى، ويؤثرون الكفر على الإيمان والشقاء على السعادة، ويتركون ما لديهم من الحجج والبراهين الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ويتمنون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا ضالين مثلهم وذلك بوسع وسعهم في ذلك. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وهو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم، فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم، فثقوا به، واعتمدوا عليه وحده، فهو تعالى يكفيكم مكرهم ويلطف بكم في جميع أموركم، ويسر ما به سعادتكم وفلاحكم. ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود وعنادهم وضلالهم، فقال:

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ من هؤلاء اليهود فريق دأبوا على تبديل وتغيير كلام الله في التوراة، ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً، فقد غيروا نعت محمد ﷺ، وأحكام الرجم وغير ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك وعصينا أمرك، والمعنى: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون:

﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي: أسمع ما تقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير، أي: لا سمعت مكروهاً ولكن اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ، أي: لا أسمعك الله، وهو دعاء بالصمم أو بالموت.

﴿وَرَاعِنَا﴾ ويقولون في أثناء خطابهم راعنا، وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحمق، فكانوا سخرية وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام، ولهذا قال تعالى:

﴿لَيَأْتِيَنَّهُمُ وَطْعَنَا فِي الدِّينِ﴾ أي: قتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام، قال ابن عطية: وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا.

﴿وَأَسْمَعْ وَأَنْظُرْنَا﴾ عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا، أي: لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل قولاً وأصوب حالاً، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال:

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسول.

* ثم يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل عليه من القرآن العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، وتوعدهم تعالى وهددهم بالطمس وإذهاب الحواس إن لم يصدقوا بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن نَّتَمِيسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يا معشر اليهود صدقوا واعملوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ، وذكر في الآيات السابقة قوله أنهم: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وذكر هنا أنهم: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والمراد أنهم أوتوا نصيباً منه؛ لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرفوا وبدلوا.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مصدقاً للتوراة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فمحوا الوجوه ونحولها قِبَل الظهور وهذا جزاء من جنس ما عملوا، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو نلعن هؤلاء المفسدين بمسحهم قردة وخنازير، كما لعنا اليهود من أصحاب السبت الذين نهوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ إن الله تعالى لا يغفر ولا يتجاوز عن من أشرك به أحداً من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر، ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده، وتحدث سبحانه عن نفسه بصيغة الغائب تعظيماً له.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ومن أشرك بالله فقد اختلق ذنباً عظيماً، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله؛ لأن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه باب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولذا حتم على المشرك بالخلود في العذاب المهين؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

* ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب، فقال:

﴿٤٩-٥٢﴾ **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾** * **﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾** * **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجُبَّتِ وَالظَّلُوعِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾** * **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾**.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى؟ والاستفهام للتعجب من حالهم، وذلك أن أعداء الله اليهود زكوا أنفسهم فقالوا: **﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ﴾** [المائدة: ١٨] وقالوا: لا ذنوب لنا.

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: ليس الأمر بتزكيته، بل الله هو الذي يثني على من يشاء من عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثل للقلة.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هذا تعجب من افتراءهم وكذبهم، أي: انظري يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيته أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه؟ وهو المنزه عن كل ما لا يليق به.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ وكفى بهذا الافتراء وزراً بيناً، وجرماً عظيماً موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْمَجْرَةُ الْخَالِدِينَ

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥١﴾
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٢﴾
 أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
 فَبِغْضِهِمْ مَنَّ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَقَ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٤﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
 جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا
 زَوْجٌ مُمْطَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا شَاوِسُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ
 أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
 تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا ﴿٥٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ أَنْتُمْ عَلَيْهَا تَأْوِيلُونَ ﴿٥٨﴾
 الْأَمْثَلُ مِنْكُمْ فَأَنْ تَنْزَعُوهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
 مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
 وَالطَّغُوتِ﴾ الاستفهام للتعجب،
 والمراد بهم أيضا اليهود، أعطوا حظًا
 من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون
 بالآوثان والأصنام، وكل ما عبد من
 دون الرحمن.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ
 أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ويقول
 اليهود لكفار قريش تملقًا لهم ومداهنة،
 وبغضًا للإيمان: أنتم أهدى سبيلًا من
 محمد وأصحابه، وهم بهذا يفضلون
 الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة

دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم، قال تعالى إخبارًا عن ضلالهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أولئك الذين كثر فسادهم وعم ضلالهم،
 طردهم الله وأبعدهم من رحمته وأحل عليهم نقمته.

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: من يطرده الله من رحمته فمن
 ينصره من عذاب الله؟ ويدفع عنه سوء العذاب.

﴿٥١﴾- ﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ * أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أم لهم حظ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار، يعني ليس لهم من الملك شيء.

﴿فَإِذَا لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم وشدة حسدهم، والنقير: مثلٌ في القلة، كالفتيل والقطمير، وهو النكتة في ظهر النواة. ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل، فقال:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرف بها العرب، ويحسدون المؤمنين على ما نالهم من العز والتمكين؟ ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم، قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة، وحسدوا أصحابه على الإيمان. والحسد كراهة ما أنعم الله به على غيره. وهو من كبائر الذنوب. لا تغفر إلا بتوبة.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة، كداود وسليمان، فلأي شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ، وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ فمن اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة، فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروي، ومنهم من أعرض عنه عناداً وحسداً فلم يؤمن وهم الكثرة فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم.

﴿وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وكفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم.

* ثم أخبر تعالى بما أعدّه للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥٦، ٥٧) * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته ووحى كتابه ودلائله وحججه، سوف ندخلهم ناراً عظيمة الوقود، شديدة الحرارة، تشوي الوجوه والجلود، يقاسون حرّها.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً، بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: عزيز لا يمتنع عليه شيء، له العزة العظيمة، حكيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، لا يُعَذَّبُ إِلَّا بِعَدَلٍ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء الذين آمنوا بالله، وما أوجب الإيمان به، وعملوا الصالحات من الواجبات والمستحبات، أي: سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث

شاؤوا، وأين أرادوا، مقيمين في الجنة لا يموتون، وقدم تعالى الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه.

﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة زوجات مطهرات من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا كل دنس وعيب.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ظلًا دائمًا لا تنسخه الشمس، ولا حرقه ولا برد، قال الحسن: وصف بأنه ظليل؛ لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، وفي الحديث: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» [رواه البخاري ومسلم].

* لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعد لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله، وأداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين، يأمرهم تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها كاملة موفورة لا منقوصة ولا مبخوسة وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان؛ من حقوق الله

ﷺ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها، روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان بن طلحة باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج أمر عليّاً أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان: أذيت وأكرهت ثم جئت تترفق، فقال: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان، فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة؛ خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم» [رواه الطبراني].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم إذا قضيتم بينهم وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به ويهديكم إليه، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه وعد ووعد، فهو سميع لأقوالكم مطلع على سائر أعمالكم؛ بصير بها، وهذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع.

* لما أمر تعالى الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم، وسبق ذلك بالأمر بطاعة الله وطاعة الرسول، لأن الوالي أو القاضي إذا خالف حكم الله ورسوله فحكمه مردود، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾
يا أيها الذين صدقوا في إيمانهم استجبوا لأوامر الله ولا تعصوه، واستجبوا للرسول ﷺ فيما جاء به من الحق، وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الأحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين يتحاكمون إلى الكتاب والسنة.

﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فإن اختلفتم في أمر من الأمور بينكم، فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال:

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إن كنتم مؤمنين حقاً، وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق، أي: فردوه إلى الله والرسول، والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم من التنازع والقول بالرأي، وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً.

اليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فأتيا عمر، فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكنا إلى محمد ففضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك، فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم، فقال عمر: مكانكما، حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيف ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد أي مات، وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآية.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهم يريدون أن يتحاكوا في فصل الخصومات إلى غير ما شرع الله من الباطل. قال ابن عباس: هو كعب بن الأشرف أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول ﷺ. ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه.

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ويريد الشيطان بما زين لهم أن يحرفهم ويبعدهم عن طريق الحق والهدى بعداً شديداً، وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان الصادق يقتضي الانقياد لشرع الله، والحكم به في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في زعمه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وإذا نصح هؤلاء المنافقين وقيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى كتاب الله وإلى الرسول وهديه ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه.

﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أبصرتهم لنفاقهم يعرضون
عنك إعراضاً.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا وعيد، أي: كيف
يكون حال المنافقين إذا عاقبهم الله بذنوبهم وحلت بهم مصيبة. بما جنته
أيديهم من الكفر والمعاصي، أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب؟
﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفِّيَقًا﴾ ثم جاءك هؤلاء
المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار، يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم
إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك، قال
تعالى تكذيباً لهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: هؤلاء المنافقون يكذبون،
والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة، وهم يريدون أن
يخدعوك بهذا الباطل.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فتول عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما
في بواطنهم، ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر.
﴿وَعِظْهُمْ﴾ وازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات.
﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام
بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً.

* ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل، فقال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾

رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما بعثنا من رسول من رسلنا إلا ليطاع بأمر الله تعالى، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله. ثم ذكر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترف السيئات، أن يتوبوا، ويستغفروا الله، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك، جاؤوك تائبين من النفاق، منقادين لحكمك، مستغفرين الله من ذنوبهم، معترفين بخطئهم.

﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ واستغفرت لهم -يا محمد- وسألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم. وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، وأما بعد موته ﷺ فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم. ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق، فقال:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكماً فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سبتك بعد مماتك، ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا انقياداً تاماً

سورة النساء

الجزء الخامس

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ بَاطِلٌ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُمْصِبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ رَمْدَةٌ يَبْتَغِيَنَّ كُنْتَ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُفْقَرْ أَوْ يُغْلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

كاملاً لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان.

* ثم ذكر ﷺ بيان لمقدار حق الله تعالى في أن يطيعه العباد في شرعه وأمره، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا * وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ ولو أوجبنا وفرضنا على هؤلاء المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت، أن يقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما فرض ذلك على بني إسرائيل.

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتاً لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق.

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: لأعطيناهم من عندنا ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة، ولأرشدناهم ووفقناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى طريق الله القويم.

ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله، فقال:

﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فأولئك الذين عظم شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة من أنعم الله عليهم بدار كرامته في دار الخلد مع المقربين.

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء، والصديقين الذين صدقوا تصديقاً خالصاً، والشهداء وهم الذين استشهدوا في سبيل الله، مع بقية عباد الله الصالحين الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم في الجنة، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ما أعطيه المطيعون من دخول الجنة ورفقة الأنبياء ومن معهم، إنما هو بمحض فضله تعالى وكرمه وجوده حيث أعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع، عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان.

* لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغطة الكفار، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد المشبطين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم. واستتبع أمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكائدهم وخطرهم، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْكُمْ كُنتَ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا * فَلْيَقْتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين، أي: يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له.

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد وانهضوا القتال العدو جماعات متفرقين، سرية بعد سرية، أو اخرجوا مجتمعين في الجيش

الكثيف، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية. ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد، فقال:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ ليتأقّلن ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون، وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر.

﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً﴾ فإن قدر عليكم وأصبتهم بقتل وهزيمة وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم.

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ قال ذلك المنافق المبطئ مستبشراً: قد تفضل الله عليّ وحفظني إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا، وسره تخلفه عنهم.

﴿وَلَيْنِ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولئن نالكم أيها المؤمنون نصر وظفر من الله وغنيمة.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ليقولن هذا المنافق المبطئ قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة: يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة، وجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده، فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام.

ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه، ونبه على وجوب إخلاص النية له، فقال:

سورة النساء

الجزء الخامس

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا
(٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَتَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ
عَلَيْنَا الْقِتَالُ وَلَآ أَخْرَجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) إِنَّمَا كُفِّرُوكُمْ
يَذَرِكُمْ أَلْمُوتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ حَسَنَةٌ
يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ
عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ بِالنَّاسِ رَسُولًا وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

٩٠

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي:

فليجاهد في سبيل الله ونصرة دينه وإعلاء كلمته الذين يبيعون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا وعد منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله مخلصاً سواء غلب، أو غلب؛ لاجتهاده في إعزاز دين الله، والمعنى: من يقاتل في سبيل الله لإعلاء

كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً، فهو فائز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو الغنيمة، كما في الحديث: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» [رواه مسلم].

* ثم حث تعالى عباده المؤمنين على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾

وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا *.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد، أي: وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد. وقوله:

﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام» إلخ كما في الصحيح.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ الذين لا وسيلة لديهم إلا الاستغاثة بالله، يدعونه لكشف الضر عنهم، قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي «مكة» إذ إنها كانت موطن الكفر، ولذا هاجر الرسول ﷺ منها.

﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الذين ظلم أهلها أنفسهم بالكفر، والمؤمنين بالأذى، ومنعوا من ظهور الإسلام فيها، ولم ينسب الظلم إلى مكة، تشریفاً لها وتكريماً.

﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ واجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً، وسخر لنا من عندك ولياً وناصرأ يتولى أمورنا،

وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة، ولما خرج منها ولي عليهم عتاب بن أسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد، فقال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين صدقوا في إيمانهم اعتقاداً وعملاً يجاهدون في سبيل نصره دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته، فهو تعالى وليهم وناصرهم، وفي هذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان والبغي والفساد في الأرض.
﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يغلب لأن الله وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال:

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إن سعي الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله الكافرين أضعف شيء وأوهنه، والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو.

* كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، فلما أمروا بالجهاد، قال تعالى عن حالهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾

أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۗ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، ف قيل لهم: أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته، وأعدوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. عن ابن عباس أن عبدالرحمن ابن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ في مكة فقالوا: يا نبي الله لقد كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا» فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجنبون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله، أو أشد من ذلك.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ وقالوا جزعاً من الموت، ربنا: لم فرضت وأوجبت علينا الجهاد؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله.

﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى أجل قريب حتى نموت بأجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ونزولها، بل يكون قليل الصبر. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال، فقال:

﴿قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا زائل فان، ونعيم الآخرة باق دائم، فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامثل أمره واجتنب ما نهى عنه، وجمعت الآية بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والحض على فعل الخير، والزجر عن فعل الشر.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق نواة التمرة، قيل: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام. ثم أخبر تعالى أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال:

﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: في أي مكان وجدتم وأي زمان كنتم فلا بد أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل، ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وإن تصب هؤلاء المنافقين ما يسرهم من متاع هذه الحياة، من نصر وغنيمة وشبه ذلك، ينسبون حصوله إلى الله تعالى ومن تقديره لما علم فينا من الخير.

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ وإن وقع عليهم ما يكرهونه من هزيمة وجوع وشبه ذلك؛ ينسبونه إلى الرسول محمد ﷺ وأتباعه ودخولنا في دينه، يعنون بشؤم محمد ودينه، يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، وقد أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ببيان أن الخير والشر بتقدير الله وحده.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنة والسيئة والنعمة والنقمة كل ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً، لا خالق سواه، فهو وحده النافع الضار وكل ذلك بقضائه وقدره وخلقته.

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: ما شأن هؤلاء المنافقين واليهود لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ الخطاب لكل سامع، أي: ما أصابك أيها الإنسان من نعمة وإحسان في الدين والدنيا، فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك وبسبب عملك السيء، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات، وما يعفو الله عنه أكثر، فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلوم من إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الجزء الخامس

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٨﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٩﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَى وَأَنْ لَوُكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٩٠﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَلِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسَيِّطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَى كُمْ وَرَحْمَتُهُ لَآتَيْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩١﴾ فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفْ إِلَّا تَنْفَسَكَ وَرَحِمَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسَا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٩٢﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴿٩٣﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ أَدْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٩٤﴾

ثم قال تعالى مخاطباً الرسول مبيناً عموم رسالته ﷺ، فقال:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وبعثناك يا محمد رسولا للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله، وحسبك أن يكون الله شاهداً على صدق رسالتك، وليس إليك الحسنة والسيئة.

* ثم رغب تعالى في طاعة الرسول ﷺ، فقال:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ من يستجب لأمر الرسول ويعمل بهديه، فقد استجاب لله تعالى وامثل أمره؛ لأنه مُبلِّغ عن الله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله، فما بعثناك يا محمد حافظاً لأعمال هؤلاء المعرضين ومحاسباً لهم عليها، إن عليك إلا البلاغ، فحسابهم علينا.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ ويظهر المنافقون وهم في مجلس رسول الله ﷺ طاعتهم للرسول وما جاء به، فإذا خرجوا من عندك غيّر وبدّل جماعة منهم ليلاً غير ما أعلنوه من الطاعة وهو الخلاف والعصيان لأمرك.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يأمر الحفظة بكتابة ما يدبرون، في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه أتم الجزاء.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فاصفح عنهم يا محمد وفوض أمرك إلى الله ولا تبال بهم وثق به.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: فهو سبحانه سينتقم لك منهم، وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه.

* ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة؛ ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه، فقال:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ﴾ أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ولو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون، لوجدوا فيه تناقضاً

واختلافاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه، ولكنه منزّه عن ذلك، أخباره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ وإذا جاء المنافقين خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو الخوف والهزيمة أذاعوا به، أي: أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ولو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر والعلم والفقه، لعرف وعلم حقيقة معناه أهل الاستنباط والاستخراج منهم، وفي هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول، ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم. وفي الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع».

* ثم أمر تعالى الرسول ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، فقال:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَالِفُ إِلَّا أَنْفَكَ وَحَرْضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً

* مَن يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعُ شَفْعَةً

سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا *
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ
 مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا *.

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فجاهد يا محمد في سبيل
 الله وإعلاء كلمته، ولو أفردوك وتركوك وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم
 بتخلف المنافقين عنك.

﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وشجعهم وحضهم على القتال والجهاد ورغبهم
 فيه، وهذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله
 من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا وعد من الله بكفهم
 و﴿عَسَى﴾ من الله تفيد التحقيق، أي: بتحريضك المؤمنين يكف الله شر
 وبأس الكفرة والفجار، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة.
 ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ وهو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم
 عقوبة وعذاباً للكافرين.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ من يشفع ويتوسط
 للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة فيشفع بين الناس شفاعاة موافقة للشرع
 ويسع لحصول غيره على الخير، يكون له نصيب من الأجر والثواب.
 ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي: ومن يشفع شفاعاة مخالفة
 للشرع ويسع لإيصال الشر إلى غيره، يكن له نصيب من الوزر والإثم بسببها.

سورة النساء

الجزء الخامس

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ هَٰذَا الْكُفْرُ فِي الْمُسْلِمِينَ فَتَعَنَّى وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوا بِهِمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْنٌ أَوْ جَاءَكُمْ فَخَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ فَلَقَاتِلُوهُمْ قَاتِلُوا كَمَا قَاتِلُوا قَوْمَهُمْ فَاقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ الْعَرَبَ رُيُودًا أَنْ يَأْمُرُكُمْ وَيَأْمُنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ تَرَعْتُمْ لَكُمْ وَبَلُّوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَكَفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوا بِهِمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

٩٢

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِيًا﴾

أي: شاهدًا وحفيظًا، ومقتدرًا فيجازي كل أحد بعمله.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ وإذا سلم عليكم

المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم لفظًا وبشاشة، أو ردوا عليه بمثل ما سلم؛ ولكل ثوابه وجزاؤه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾

يحاسب تعالى ويجازي العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسم

من الله بجمع الخلائق يوم المعاد، وإخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، أي: الله الواحد الذي لا معبود سواه، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، ليعثنكم أولكم وآخركم من قبوركم إلى الحساب يوم القيامة الذي لا شك فيه، وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد للجزاء والحساب، ويوم القيامة سمي بهذا الاسم لأمر ثلاثة: الأول أن الناس يقومون فيه من قبورهم لله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] الثاني: أنه يقام فيه العدل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والثالث أنه يقوم فيه الأشهاد: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لفظه استفهام ويعني التحدي، ومعناه النفي، أي: لا أحد أصدق في الحديث والوعد والوعيد من الله رب العالمين. * لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، فقال تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوْلُ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ عَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول: لا نقتلهم، والحال أنهم منافقون، والله قد أوقعهم وردهم إلى الكفر بسبب سوء أعمالهم. عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال

بعضهم: لا، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ...﴾ الآية، فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد» [رواه البخاري ومسلم].

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: أتودون هداية من صرف الله تعالى قلبه عن دينه، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضوعين، والمعنى: لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير، لأن الله حكم بضلالهم.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ومن خذله الله عن دينه، واتباع ما أمر به فلا طريق له إلى الهدى والإيمان.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: تمنى هؤلاء المنافقون عناداً وتمادياً في الضلال لو تنكرون حقيقة ما آمنت به قلوبكم مثلما أنكروه بقلوبهم، فتكونون معهم في الإنكار والكفر سواء.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله برهاناً على صدق إيمانهم، ويستلزم هذا بغضهم وعداوتهم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فإن أعرضوا عما دعوا إليه، فخذوهم أيها المؤمنون أسارى أينما كانوا، واقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور، ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة. ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ والمعنى: لكن الذين يتصلون بقوم بينكم وبينهم عهد وميثاق فلا تقاتلوهم، وهذه هي الفرقة الأولى.

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ وكذلك الذين أتوا إليكم وقد ضاقت صدورهم وكرهوا قتالكم وقاتل قومهم، فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم فلا تقاتلوهم، وهؤلاء الفرقة الثانية.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي: أنه سبحانه بمنه ولطفه بكم كفهم عنكم، ولو شاء لقواهم وجرأهم عليكم فقاتلوكم.

﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فإن لم يتعرضوا لكم بقتال، وانقادوا واستسلموا لكم، فليس لكم أن تقاتلوهم ظلماً وقد سالموكم. ثم ذكر ۞ الفرقة الثالثة:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم خوفاً منكم بإظهار الإيمان، ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم، وهم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا لئامنوا من المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم.

﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ كلما دعوا إلى الكفر، أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل، فهم شر من كل عدو شرير؛ لأنهم مقيمون على كفرهم ونفاقهم.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْجَنَّةُ الْخَالِدِينَ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٤﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ لَسَلَّمَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَافِرٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٥﴾

٩٣

﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِزْ لُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ فَإِنْ لَمْ يَجْتَنِبُوا وَيَسْتَسْلِمُوا إِلَيْكُمْ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ.

﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلَوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فخذوهم بقوة وأسروهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم أينما كانوا.

﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ وقد جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم.

* ثم ذكر ﷺ شدة تحريمه لقتل المؤمن للمؤمن، وأنه منافع للإيمان أشد منافاة، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضي للتحريم، أي: لا يحق لمؤمن ولا يليق به الاعتداء على أخيه المؤمن إلا على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه، لأن الإيمان زاجر عن العدوان. يروى أن الحارث بن يزيد كان شديداً على

النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقبه عياش بن أبي ربيعة والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر فقتله فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ الآية.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ، فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة لذلك؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، وعليه كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول جبراً لقلوبهم، إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية. وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين: الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل، والدية هي مائة من الإبل على العاقلة وفي هذا تعظيم القتل، فأوجب الكفارة مع الخطأ مع أن المخطئ لا كفارة عليه في القاعدة الشرعية، وسمى العفو عن الدية صدقة ترغيباً فيه.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فإن كان المقتول خطأ مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وإن كان المقتول خطأ من قوم كفره بينكم وبينهم عهد كأهل

الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم رقبة مؤمنة وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فمن لم يجد الرقبة ولا ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين لا يفطر بينهما من غير عذر عوضاً عنها، وقد شرع تعالى هذه الكفارة توبة على عباده ورحمة بهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بخلقه، حكيماً فيما شرع وحكم. * ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة، فقال:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي: ويناله السخط الشديد من الله، والطرده من رحمة الله، والعذاب الشديد في الآخرة بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة. ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، إذا خرجتم في الأرض لغزو الأعداء، فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً، وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه؛ لاحتمال أن يكون مؤمناً يخفي إيمانه.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ طالبين بذلك متاع الحياة الدنيا من الغنيمة الذي هو حطام سريع الزوال. عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال:

السلام عليكم فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾ الآية.

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ فعند الله ما هو خير من ذلك، وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم. ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومنّ عليكم بالإيمان، والمن هو: العطاء بلا ثمن، فتبينوا وتثبتوا أن تقتلوا مؤمناً، وقيسوا حاله بحالكم، أعادها مرة أخرى للتوكيد، ولأهمية الأمر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: مطلعاً على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

* ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين، والتفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيث القاعدين ليأنفوا، فقال:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.. قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها. ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم، فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.. قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها. ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم، فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَرِيعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٦﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٨﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَكْفَرْتُمْ كَانُوا كُفْرًا وَعَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠٠﴾

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ وفي هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل، أي: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه»، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر» [رواه البخاري]. وقيل إن معنى درجة: علواً؛ أي: أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: وقد وعد الله كلا من المجاهدين والقاعدين بأموالهم وأنفسهم، والقاعدين من أهل الأعذار الجزاء الحسن في الآخرة. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالشواب الوافر العظيم. وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، فالأول في:

﴿دَرَجَاتٍ﴾ وهنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾

فالأول في المنزلة، والثاني في حجم الأجر والشواب.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: هذا الشواب الجزيل منازل عالية في الجنات بعضها أعلى من بعض، وقيل الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فاز بها المجاهدون، وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» [أخرجه النسائي].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين «الغفور الرحيم» ختم هذه الآية بهما.

* لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: هذا الوعيد الشديد لمن تتوفاهم الملائكة أراد به ملك الموت وأعوانه أي تقبض أرواحهم من أبدانهم وقد ظلموا أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان مع قدرتهم عليها. عن ابن عباس قال: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء

مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية.

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: تقول لهم الملائكة توبيخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟
﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قالوا معتردين: كنا مقهورين مظلومين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها وعن دفع الظلم والقهر عنا، وهم غير صادقين في ذلك.

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ قالت لهم الملائكة توبيخاً: أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دار أخرى تأمنون على دينكم، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة.

فكذبهم الله تعالى ثم قال تعالى بياناً لجزائهم:

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مقرهم ومنزلهم النار وساءت مقراً ومصيراً. ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة، فقال:

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ويعذر من ذاك المصير من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة، ولا يستطيعون الخلاص، ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ فهو لاء الضعفاء هم الذين يُرجى لهم من الله العفو؛ لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً، وعسى من الله واجب، تفيد التحقيق؛ لأنه للإطماع، والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله إليه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يعفو ويغفر لأهل الأعذار.

ثم حث ﷺ ورغب على الهجرة، فقال:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي: من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء بقصد صحيح ونية صالحة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا يجد مهاجراً ومتحولاً في الأرض كبيراً، يراغم به أنف عدوه، ويجد سعة في الرزق، فأرض الله واسعة، ورزقه سابغ على العباد، وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه، راجياً فضل ربه، قاصداً نصرة دينه، ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى. كان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً، فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده: احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: ساتراً على العباد، رحيماً بهم.

* لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافر وصلاة الخوف فقال:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ وإذا سافرتُم أيها المؤمنون للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن خشيتُم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة، وذكر الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين في بدء الإسلام، والقصر رخصة في السفر حال الأمن أو الخوف.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة، ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم فاحذروهم.

* وبعد أن ذكر الله ﷻ رخصة قصر الصلاة في السفر، أتى بعدها بصفة صلاة الخوف، فقال:

سورة النساء

الجزء الخامس

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْخُلُوا فِي مَا أَفْعُدُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا أَبْيَعَاءَ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

٩٥

﴿١٠٢﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وإذا كنت يا محمد في ساحة القتال، فأردت أن تصلي بأصحابك، وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب، فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً، ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية، ويسلمون، ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتوا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح. ثم ذكر ﷺ لليلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح، فقال:

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون، والمعنى لا تتشاغلوا بجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم، ولكن أقيموها على ما أمرتم به.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ ولا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفت منها؛ لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين.

﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ كونوا متيقظين، واحترزوا من عدوكم ما استطعتم، لئلا يأتيكم على غرة وأنتم غافلون.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: أعد للجاحدين لدينه عذاباً مخزياً مع الإهانة. روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزرقى قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية.

* ثم ذكر الله بعد صلاة الخوف الاستمرار على كثرة الذكر في جميع الأوقات، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۚ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم، واذكروه في جميع أحوالكم لعله ينصركم على عدوكم.

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإذا أمتتم وذهب الخوف فأتوا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه.

ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد، فقال:

﴿وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ ولا تضعفوا في طلب عدوكم وقتاله بل جدوا فيهم وقاتلوهم وأظهروا القوة والجلد واقعدوا لهم كل مرصد. ثم ذكر تعالى ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإن ذلك يصيب أعداءكم

ويتألمون أيضاً منه كما تتألمون، ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم، وهذا هو الثاني. وفي ذلك تشجيع لنفوس المسلمين، وتحقير لأمر الكفرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في تشريعه وتدبيره، نزلت هذه الآية في غزوة أحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الواقعة، وقيل: هذا في كل جهاد.

﴿١٠٥-١٠٩﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآأَنْتُمْ هَآؤَلاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾
إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن مشتملاً على الحق لتفصل بين الناس بما عرفك الله وأوحى به إليك وبصرك به. روي أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة ابن أبيرق من بني ظفر سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها،

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَا تُجَادِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَأَكْبَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ
خَوَاتِنًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٩﴾ هَٰؤُلَاءِ هُمُ
جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِ اللَّهَ عَنْهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْرًا فَمَنْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ دُمًّا يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ يُجِدِ اللَّهَ عَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ ثَمَنًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً
أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا
﴿٢٣﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿٢٤﴾

فقال: دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَكَ اللَّهُ...﴾ الآية، وهرب طعمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

أي: لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين بكتمان الحق تجادل وتدافع عنهم، والمراد به طعمة بن أبيرق وجماعته.

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طعمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ويرجو فضله، ونوال مغفرته، رحيماً به.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ إن الله يبغض ولا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام، والخوان: كثير الخيانة، والأثيم: كثير الإثم.

ثم ذكر عن حال هؤلاء الخائنين أنهم:

﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ يستترون من الناس خوفاً وحياء من اطلاعهم على أعمالهم السيئة، ولا يستحيون من الله، وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه وهذا من ضعف الإيمان، ونقص اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو معهم بالعلم - جل وعلا -، عالم بهم وبأحوالهم، يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.

ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طعمة:

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين لأنفسهم في الدنيا.

﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه؟ ومن يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه؟

* ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة، وأخبر سبحانه عباده بحلمه وعفوه وكرمه، وسعة رحمته ومغفرته، أن كل من تاب إليه، تاب عليه من أي ذنب كان، فقال:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا * لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ تَحْوِيلِهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ أي: ومن يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة. وسمي ظلم النفس «ظلمًا» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، وقد جعلها أمانة عند العبد.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة، قال ابن عباس: عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق. وأخبر الله العباد بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، ولو كانت ذنوب العبد أعظم من السماوات والأرض والجبال، فإن الله يغفرها لمن تاب واستغفر.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ومن يقترب إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ ومن يعمل خطيئة بغير عمد، أو يرتكب ذنباً متعمداً.

﴿ثُمَّ يَرَمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمل جرماً وذنباً واضحاً. ثم بين تعالى فضله على رسوله، فقال:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ ولولا أن الله منّ عليك ورحمك يا محمد بالنبوة فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك، لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرئ صاحبهم طعمة من التهمة، ويلحقها باليهودي؛ فتفضل الله ﷻ على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وبال إضلالهم راجع عليهم، وما يضررونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال:

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة لذلك، فكيف يضلونك، وهو تعالى ينزل عليك الكتاب ويوحى إليك بالأحكام.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وعلمك علم ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية، وكان فضل الله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة.

* لما ذكر تعالى قصة طعمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السر لإيقاع البريء بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن

كل تدبير في السر يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح، ثم ذكر تعالى عقوبة مخالفة أمر الرسول ﷺ، قال تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ أُتِيَ اللَّهُ بِمَرْضَاتٍ أَلَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ أي: لا نفع في كثير مما يسره القوم ويتناجون به في الخفاء، ثم استثنى تعالى ثلاثة أمور، فقال:

* لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ أُتِيَ اللَّهُ بِمَرْضَاتٍ أَلَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٥﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ الْبُشْرَ الْكَافِرِينَ وَلَا يَغْفِرُ مَادُونِ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مَرِيدًا ﴿١١٨﴾ أَعَنَّهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٩﴾ وَلَا ضَلَالَةٌ وَلَا مُبِيدَةٌ وَلَا مَرْنَةٌ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُّبِينًا ﴿١٢٠﴾ يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا أَعْرُوزًا ﴿١٢١﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجْدُونَ عَنْهَا مَجِيصًا ﴿١٢٢﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ إلا إذا كان حديثاً داعياً إلى بذل المعروف من الصدقة، أو أمر بطاعة الله، أو كلمة طيبة، أو توفيق بين الناس. والمعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين؛ لأن النزاع والخصام، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضا الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا.

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة، فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقترب بها ما يمكن من العمل. وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة»، قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة» [رواه أبو داود].

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ومن يخالف ويعاند أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم وما هم عليه من الحق. بل تولّى أهل الكفر والضلال.

﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ نتركه مع اختياره الفاسد فلا نوقفه للخير، وندخله جهنم عقوبة له، وساءت مرجعاً ومآلاً لهم.

لما سرق طعمة بن أبيرق وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ الآية.

* ثم حذر ﷺ من الشرك وعظم خطره، ومن الشيطان ومكائده، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَتَّبِعْنِ أَعَادَانِ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا *.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ إن الله تعالى لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد من عباده.

أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكاً من خلقه، فقد بعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً وحُرِّم الخير كله.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾ أي: ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث اللات والعزى ومناة، ولا تنفع ولا تضر، وكانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة.

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور، وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا أَخْذُنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: أبعد الله وطرده عن رحمته، فأقسم الشيطان قائلًا: لأخذن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم، حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة.

﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾

ولأصرفهم عن طريق الهدى والحق وأعدهم الأمانى الكاذبة، وألقي في قلوبهم طول الحياة، وأن لا بعث ولا حساب.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ عَادَانُ الْأَنْعَمِ﴾ ولا أمرهم بتقطيع آذان الأنعام لما أزينه لهم من الباطل. يعني تشويقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ ولأدعونهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة وهيئة ما عليه الخلق كالوشم والنمص والتفلج للحسن وغيره، وقيل: المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومن يستجيب للشيطان ويطعه ويترك أمر الله.

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها، وأي خسران أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس:

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾ يعد الشيطان أتباعه بالفوز والسعادة ويمنيهم بالكاذيب والأباطيل، وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافتري في ذلك.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً لا صحة له، والغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مزين الظاهر فاسد الباطن.

﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: هؤلاء المستحسنون للشيطان فيما وعدهم ومناهم؛ مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم، وليس لهم منها مفر ولا مهرب.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، وما لهم من الكرامة في دار القرار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والذين صدقوا في إيمانهم بالله تعالى، وأتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة سيدخلهم الله بفضلهم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال.

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ وعداً صادقاً لا شك فيه ولا ارتياب؛ لأنه من الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ومن أصدق من الله في قوله ووعدته؟ والاستفهام معناه النفي، أي لا أحد أصدق قولاً من الله، والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

﴿١٢٣-١٢٤﴾ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَن أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأمانِي أهل الكتاب وإنما ينال هذا الفضل العظيم بالإيمان والعمل الصالح. والأمانِي: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته العمل، إن قومًا ألتهتهم الأمانِي حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ أي: من يعمل عملاً سيئاً يجز به. والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان بالله تعالى وبما أنزل من الحق وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال دون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليها كل شيء.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ فالذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح يدخلهم الله الجنة ولا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم ولو كان مقدار النقرة في ظهر النواة، وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن وأحكم ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام مطيع لله مجتنب لنواهيه.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: صديقاً اصطفاه لمحبهته وخلته، قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه. وفي هذه الآية إثبات صفة الخلّة لله تعالى وهي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إن الله محيط بجميع الأشياء، لله جميع ما في هذا الكون من الكائنات فهي ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك؛ لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته، لا لحاجته ولا للتكثير به والاعتضاد بمخاللته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من أمور خلقه.

* ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إما بالوفاق أو بالفراق، قال تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٧)

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ يسألونك يا محمد أن تبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من قضايا النساء وأحكامهن. عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَمَىٰ﴾ [النساء: ٣] فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها

غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يقسطوا الهن ويبلغوا الهن أعلى ستهن في الصداق، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتهم في شأنهن، ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن.

﴿فِي يَتَنَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبن في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن كاملة، وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، فقد كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة وأحبها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه.

﴿وَالْمُسْتَضَعْفَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ ويفتيكم في أمر الضعفاء من الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء، ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث. ثم حث على الإحسان عموماً، فقال:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى وغيرهم فإن الله يجازيكم عليه، قد أحاط علمه بعمل

المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته. روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والصلح خير من الفراق وأولى وأفضل، لما في الإصلاح من بقاء الألفة والمودة وسماحة النفس، واستمرار الحياة الزوجية.

قال السعدي: والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت الأنفس على الشح، وهو شدة البخل، فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها.

﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تحسبوا معاملتة زوجاتكم وتتقوا الله بترك الجور عليهن، وتخافوا الله فيهن بالإعراض عن ما يؤدي إلى الأذى والخصومة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإن الله عالم بما تعملون، وسيجزىكم عليه أوفر الجزاء.

ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة، فقال:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ ولن تقدروا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع.

﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: ولو بذلتم كل جهدكم؛ لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان.

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فلا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فلا تؤدوا حقوقهن الواجبة، فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة فتأثموا، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: وإن تصلحوا ما مضى من الجور، وتعدلوا في قسمكم بين زوجاتكم، وتتقوا الله بالتمسك بالعدل، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه فيهن.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر ما فرط منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق، فإنه لا بأس بالطلاق، وإن فارق كل واحد منهم صاحبه، فإن الله يغنيه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه؛ لأن الله ﷻ هو الرزاق المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ كثير الفضل، واسع الرحمة على العباد، حكيماً في تدبيره لهم يعطي بحكمة، ويمنع بحكمة.

* يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم، وكمال سعته، وشمول قدرته، فقال سبحانه:

﴿١٣١﴾-﴿١٣٥﴾ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ***

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً.
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولقد عهدنا إلى الأولين والآخرين الذين أعطوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، وعهدنا إليكم وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة.
﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته والقيام بأمره واجتناب نهيه.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وإن تجحدوا وحدانية الله تعالى وشرعه، فلا يضره تعالى كفركم؛ لأنه مستغن عن العباد، وهو المالك لما في السموات والأرض.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ غنياً عن خلقه، محموداً في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين. ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والله ملك ما في هذا الكون من الكائنات، وكفى به حافظاً لأعمال عباده قائماً بشؤون خلقه حافظاً لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ يا من آمتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة، وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّامِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جور أبداً.

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهادتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له.

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم، فلا تمنعنكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل، فإن الحق حاكم على كل إنسان، وذكر الأبوين لوجوب برهما وكونهما أحب الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة والتعصب. فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبي من الناس أخرى أن يشهدوا عليه بالحق.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ إن يكون المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه طلباً لرضاه، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً.

﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فالله أولى بالغني والفقير، وأعلم بما فيه صلاحهما، فراعوا أمر الله فيما أمركم به، فإنه أعلم بمصالح العباد منكم.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس، ولا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليك على ترك العدل في شؤونكم بل الزموا العدل على كل حال.

﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ وإن تحرفوا الشهادة بألسنتكم، أو تعرضوا عنها بترك أدائها، أو بكتماها.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإن الله كان عليماً بدقائق أعمالكم، محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها وسيجازيكم بها.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ءَ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله اثبتوا وداوموا على الإيمان والتصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وآمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وآمنوا بالكتب السماوية التي أنزلها تعالى من قبل القرآن، من التوراة والإنجيل، والزبور وسائر الكتب.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب، فقد خرج عن طريق الهدى، وبعداً كبيراً عن طريق الحق.

* ثم ذكر تعالى حال وأوصاف المنافقين المخزية، وحالهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ * بَشِيرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾
إن الذين دخلوا في الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا إلى الكفر مرة أخرى، ثم أصروا على كفرهم واستمروا عليه، فإنه لا توبة لهم بعد موتهم ولا يغفر الله لهم ولا يجعل له مما هم فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى. قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ * لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة، وقيل: ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر تعالى بلفظ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكمًا بهم، فإن البشارة تستعمل في الخير وتستعمل في الشر بقيد، أي: أخبر يا محمد المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بعذاب النار الأليم. والبشارة: كل خبر يتغير به بشرة الوجه سارًا أو غير سار.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعوانًا وأنصارًا لما يتوهمونه فيهم من القوة، ويتركون ولاية المؤمنين ولا يرغبون في مودتهم.

﴿أَيَّتَبَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أيطلبون بموالاتة الكفار القوة والغلبة والمنعة والنصرة؟ والاستفهام إنكاري، أي: إن الكفار لا عزة لهم فكيف تبتغي منهم.

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فالعزة والقوة والقدرة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيتته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: نزل عليكم أيها المؤمنون في القرآن حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، والخطاب لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق.

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكفر به الكافرون ويستهزئ به المستهزون ويستهيئون بها، وآيات الله يجب تعظيمها وإجلالها وتفخيمها.

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا

فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ﴿فَلَا تَجْلِسُوا مَعَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَتَحَدَّثُوا بِحَدِيثٍ آخَرَ غَيْرِ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ ﴿تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ، أَي: إِنَّكُمْ إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ كُنْتُمْ مِثْلَهُمْ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِكُفْرِهِمْ وَاسْتَهْزَأْتُمْ، وَالرَّاضِي بِالْمَعْصِيَةِ كَالْفَاعِلِ لَهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ

فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعُ الْفَرِيقَيْنِ

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ كَمَا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ وَالْمُؤَاوَاةِ لِأَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَهَذَا الْوَعِيدُ مِنْهُ تَعَالَى لِلتَّحْذِيرِ مِنْ مَخَالَطَتِهِمْ وَمَجَالَسَتِهِمْ.

* ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى تَرْبِصَهُمُ السُّوءَ وَانْتِظَارَهُمُ الدَّوَائِرَ تَنْزِلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ:

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لِأَيِّ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَمِثْلًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخَاصُوا بِهِمْ ثُمَّ لِلَّهِ قَوْلٌ لَكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: المنافقون هم الذين ينتظرون بكم الدوائر وينظرون ما يحل بكم أيها المؤمنون من الفتن والحرب.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فإن من الله عليكم بفضلته، ونصركم على عدوكم وغنمتم.

﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾ أي: قالوا لكم: ألم نكن معكم نؤازركم فأعطونا من الغنمة.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: ظفر عليكم يا معشر المؤمنين وقدر من النصر والغنمة، كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة، ولم يقل فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله.

﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا للمشركين: ألم نساعدكم بما قدمناه لكم ونحمكم من المؤمنين؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم؛ لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيك، قال تعالى بياناً لمآل الفريقين:

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فالله تعالى يقضي بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق يوم القيامة، فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ففي يوم القيامة تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ولن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، ولا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره.

* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقهم مخادعة الله ورسوله، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا *﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ إن طريقة هؤلاء المنافقين أن يفعلوا ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم، وقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم، ثم ذكر من صفاتهم أنهم:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ وإذا قام هؤلاء المنافقون يصلون قاموا وهم متثاقلون متكاسلون، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، أما الغفلة فقد يتلى بها المؤمن.

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله، ولا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً لا متلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلى قلبه بمحبة الله وعظمته. قال ابن عباس رضي الله عنه: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه، يغفر له ويجيب إذا دعاه.

﴿مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم لا يستقرون على حال.

﴿لَا إِلَى هَوًى وَلَا إِلَى هَوًى﴾ لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمسك بهديه، فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى واليقين.

* لما ذكر تعالى أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، وحذر تعالى المؤمنين من موالات أعداء الدين ومصاحبتهم ومصادقتهم وإسرار المودة إليهم، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَٰمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تتركوا موالات المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أتريدون أن تجعلوا لله

حجة بالغة ظاهرة على عدم صدقكم في إيمانكم، وفي الآية دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه. قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن حجة.

ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين ومنازلهم في الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ إن المنافقين في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات، قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنار دركات كما أن الجنة درجات.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ولن تجد لهؤلاء المنافقين يا محمد ناصرًا ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله ويدفع عنهم سوء هذا المصير.

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب الله عليه وقبل ندمه إذا أخلص توبته، وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أموره، قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وهذا استثناء، أي: تابوا عن النفاق ورجعوا إلى الله تعالى. ﴿وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: أعمالهم ونياتهم وظواهرهم بطاعة الله تعالى، وتمسكوا بكتاب الله ودينه.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ولم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في زمرة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة، وهو الجنة.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: يبغض ويمقت الله الفحش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه، وأن يذكره بما فيه من السوء ليبين مظلّمته. قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ سميعاً لدعاء المظلوم، عليمًا بظلم الظالم. ثم ندب وحث الله ﷻ إلى العفو، فقال:

﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه، أو عفّيتم عمن أساء إليكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أي: كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه، فيسدل عليهم ستره ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته. قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى حيث حث تعالى على العفو، وأشار إلى أنه عفو مع قدرته، فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟! قال بعض العلماء: اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق، والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر.

* لما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين، ذكر الكفار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا

بمحمد ﷺ وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفراً بالله تعالى.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ التفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم، وقد فسرته تعالى بقوله بعده:

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض. قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان، ولا واسطة بينهما.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان، وقد هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: صدقوا بوحدانية الله وأقروا بجميع الرسل، وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بهم كلهم.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسوله، وأتى هنا باسم الإشارة «أولئك» تعظيماً لهم، وجاءت بصيغة البعيد لعلو منزلتهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام، متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة. كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالرسل.

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: سألوا موسى رؤية الله ﷻ عياناً.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾ جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم حين سألوا أمراً ليس من حقهم، وبعد أن أحياهم الله بعد الصعق، وشاهدوا الآيات البينات على يد موسى القاطعة بنفي الشرك.

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها.

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ عفونا عما ارتكبهوه ولم نستأصلهم مع عظم جريمتهم وخيانتهم بسبب توبتهم، فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم.

﴿وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أعطيناه حجة ظاهرة، تظهر صدقه وصحة نبوته، وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ ورفعنا فوق رؤوسهم جبل الطور حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المؤكد الذي أعطوه بالعمل بأحكام التوراة.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رؤوسكم خضوعاً لله، فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على استاهمهم وهم يقولون حنطة في شعرة؛ استهزاءً.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً وثيقاً مؤكداً فنقضوه.

* ثم ذكر عليه السلام ذنوباً ارتكبوها، مما
أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن
الهدى، قال تعالى:

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ ١٥٥-١٥٩

وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
بُهِتْنَا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا
الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * .

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكَفَّرَهُم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فسبب نقضهم الميثاق
لعنّاهم وأذلّلناهم و﴿فِيمَا﴾ لتأكيد المعنى، وبجحدوهم بالقرآن العظيم
الذال على صدق رسله.

﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ظلماً واعتداءً؛ كزكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهما.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وقولهم للنبي ﷺ: قلوبنا مغشاة بأغشية لا تعي ما تقول يا محمد، قال تعالى رداً عليهم:

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بل ختم وطمس تعالى عليها بسبب الكفر والضلال، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا ينفعهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ أي: وكذلك لعناهم بسبب كفرهم بـعيسى عليه السلام أيضاً، ورميهم مريم بالزنى وهي بريئة منه، وقد فضلها الله على نساء العالمين، ويلزم من بهتانهم هذا أن عيسى أحد الأنبياء أولى العزم ولد زنا -والعياذ بالله-.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وبسبب قولهم على سبيل التهكم والاستهزاء إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: وما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ولكن قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبهه. روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وهم يظنون أنه عيسى.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رفع عيسى وألقى شبهه على غيره فقتلوه، قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا، فقال بعضهم هو عيسى، وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصاً قد قُتل واختلفوا من كان.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي: ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ^(١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين، ونجاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حيًّا بجسده وروحه، وطهره من الذين كفروا.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه وتدبيره وقضائه.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ في يوم القيامة ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

* ثم أخبر ﷺ الأمر الذي بسببه حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، فقال تعالى:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَّا كِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ﴾ أي: بسبب ظلم اليهود وما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرم الله عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم.

﴿وَبَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله، حيث صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق.

﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ وبسبب تناولهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة.

﴿وَأَكْلِهِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وهياناً لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجه في الآخرة. ولما ذكر معاييب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين، فقال:

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ لكن المتمكنون في العلم منهم وال ثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يؤمنون ويصدقون بالذي أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن، وبالذي أنزل إلى الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: ويؤدون الصلاة في أوقاتها، والمعطون زكاة أموالهم.

الجزء السادس

سورة النساء

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ١٣٢ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٣٣ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٣٤ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيَعْلَمُكَ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُ مِنْ وَكَيْيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٣٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَيُرِيَنَّ اللَّهُ لِيَعْلَمَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٣٧ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٣٨ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّبَعُوا آخِرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٣٩﴾

١٠٤

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ﴾ والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت.

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة، جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة سنعطيتهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم هو الخلود في الجنة.

* لما حكى تعالى جرائم اليهود التي

من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد

وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى. أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام -، قال تعالى:

﴿١٦٣-١٦٥﴾ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَّيِّسَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم النبي محمد ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي: وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، خصّ تعالى محمداً بالذكر تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني، ثم ذكر إبراهيم؛ لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة، وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه، والنصارى في تقديسه، وفي ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم واستناناً بستتهم، ومعرفة بحقوقهم.

﴿وَعَاثَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا﴾ وخصصنا داود بالزبور وهو كتاب وصحف مكتوبة، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبرهم لك يا محمد في غير هذه السورة.

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم لحكمة أردناها.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة تشریفاً له بهذه الصفة ولهذا سمي الكليم، وإنما أكد ﴿تَكْلِيمًا﴾ رفعاً لاحتمال المجاز. وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى، كما يليق بجلاله، وأنه سبحانه كلم نبيه موسى ﷺ حقيقة بلا واسطة.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: أرسلت رسلاً إلى خلقي يبشرون بالجنة من أطاع، وينذرون بالنار من عصى.

﴿لَعَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعثهم الله ليقطع حجة من يقول: لو أرسل إليّ رسول لآمنت وأطعت، فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه.

* ثم ذكر تعالى ردّاً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد، فقال:

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره، بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وكفى الله شاهداً، فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، وفي هذا وعيد شديد لهم، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، وظلموا باستمرارهم على الكفر.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم استمروا على الطغيان، وماتوا على الكفر. ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلدين فيها أبداً. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: تخليدهم في جهنم، لا يصعب عليه ولا يستعظمه، ولا يبالي الله بهم ولا يعبأ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشرعة الواضحة من عند ربكم، فصدقوا ما جاءكم من عند ربكم، يكن الإيمان خيراً لكم.

الجزء الثالث

سورة النساء

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٠﴾ لَنْ يَسْتَنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْصِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٣١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ قُرْآنًا مُبِينًا ﴿١٣٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٤﴾

١٥٠

﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإن تستمروا على الكفر، فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقيح أفعالكم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بأحوال العباد، حكيمًا فيما أمره وشرعه لهم.

* ولما رد تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرد على ضلالات النصراني في إفراطهم وغلوهم في تعظيم المسيح فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يا معشر أهل الإنجيل وهم النصراني، لا تتجاوزوا الحد في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح ورفعته عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ولا تصفوا الله بما لا يليق من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: ما عيسى إلا رسول من رسل الله أرسله الله بالحق، وليس ابن الله كما زعمتم.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ وقد خلقه بكلمة تكلم الله به فكان بها عيسى، من غير واسطة أب ولا نطفة ولم يكن تلك الكلمة. وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: ذو روح مبتدأة من الله، وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً.

﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد وأسلموا له وصدقوا رسله أجمعين، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، المسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فنهاهم تعالى عن ذلك وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزه عن الشريك.

﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ انتهوا عن هذه المقالة يكن ذلك خيراً لكم ثم نزه نفسه عن الشريك والولد.

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ منفرد في ألوهيته الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة.

﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تنزهه وتقدس الله عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً، وفي هذا بيان لتزهره مما نسب إليه، بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيهه على غناه عن الولد، أي: كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين؛ لأنه مالك كل شيء.

* ثم رد تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة، فقال:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾^(٧٧)،^(٧٨) * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله، ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله.

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويجازي كلاً بما يستحقه، جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟» قالوا: عيسى، قال: «وأى شيء أقول فيه؟» قالوا تقول: إنه عبد

الله ورسوله، فقال لهم: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى فأنزل الله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ الآية. ثم فصل حكمه فيهم، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فأمّا الذين صدقوا بالله اعتقاداً وقولاً وعملاً استقاموا على شريعته فيوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وأمّا الذين أنفوا وتعظموا عن عبادة ربهم، فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله.

* ثم يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ ﴿١٧٤﴾، ﴿١٧٥﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته.

الجزء الساتر

سورة الساتر

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وأنزلنا

عليكم القرآن ذلك النور الوضاء. ولكن انقسم الناس بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: منهم من آمن، ومنهم من استنكف عن الحق وكفر به:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا

بِهِ﴾ أي: صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ولجأوا إلى الله واعتمدوا عليه.

﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾

أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ ويرشدهم ويوفقهم إلى سلوك الطريق

المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ

وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.



﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ يسألونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والد، أو ولد، من يرثه؟ قل الله يفتيكم:

﴿إِنْ أَمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ قل لهم يا محمد الله يبين لكم الحكم فيها: من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلالة.

﴿وَلَهُوَ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفٌ مِمَّا تَرَكَ﴾ وله أخت شقيقة، أو أخت لأب فلها نصف مما ترك أخوها.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ وإن كانت الأختان اثنتين فأكثر، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين.

﴿لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

قال ابن عثيمين: «لم يقل: (للأنثى نصف الذكر)؛ لأن الحظ والنصيب فضل وزيادة، والنصف نقص، فهو أحسن تعبيراً».

﴿يُيَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ يبين ويوضح الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا عن الحق في أمر الموارث.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات.

تم تفسير سورة النساء

والحمد لله

الفهرس

٣	المقدمة
٧	سورة الفاتحة
١٦	سورة البقرة
٢٦٠	سورة آل عمران
٤٠٠	سورة النساء
٥٣٦	الفهرس